أوسكار وايلد

بيت الرمان

رائعة أوسكار وايلد



ترجمة: إيناس التركي

الملك الشاب

جلس الملك الشاب وحده في حجرته الجميلة، في الليلة السابقة لليوم المحدد لحفل تتويجه، فقد استأذن جميع رجال حاشيته للانصراف، بعد أن حنوا رؤوسهم أرضًا، كما تقتضي التقاليد الرسمية في ذلك العصر، وذهبوا للقاعة الكبرى بالقصر، لتلقي بعض الدروس الأخيرة من معلم الإتيكيت، حيث إن بعضهم كان لا يزال يحتفظ بسلوكيات طبيعية، ولا حاجة بنا بالطبع لأن نذكر أن ذلك كان يعد جرمًا بالغًا وسط الحاشية.

لم يأسف الفتى -كان بالفعل مجرد فتى في السادسة عشرة من العمر- لرحيلهم. تنهد بارتياح عميق، وهو يرتمي للخلف على الوسائد الناعمة التي تعلو أريكته المطرزة. استلقى وفي عينيه نظرة شاردة، وقد فغر فاه وكأنه فون (1) بإحدى الغابات، أو حيوان صغير في الغابة، وقع حديثًا في فخ الصيادين.

(1) الفون هو كائن خيالي في الميثولوجيا الرومانية، رأسه وجسمه العلوي مثل الإنسان، وله ساقا ماعز وقرون.

وبالفعل، لقد عثر عليه الصيادون، بعد أن وصلوا إليه بالصدفة تقريبًا. كان عاري القدمين، ومزماره بيده، بينما هو يتبع قطيع راعي الغنم الفقير الذي قام بتنشئته، والذي طالما اعتقد أنه ابنه. قال البعض إنه ابن الابنة الوحيدة للملك العجوز من زواج سري، مع شخص أدنى منها مكانة بدرجة كبيرة. كان غريبًا نجح في إيقاع

الأميرة في حبه من خلال عزفه الساحر على العود. في حين تحدث آخرون عن فنان من ريميني أكرمته الأميرة وبالغت في إكرامه، ثم ما لبث أن اختفى فجأة من المدينة، تاركًا عمله في الكاتدرائية قبل أن يكمله. كان الطفل قد أتم أسبوعًا واحدًا من العمر، عندما اختطف من جوار أمه النائمة، وعهد برعايته إلى قروي بسيط وزوجته، ليس لديهما أي أطفال من صلبهما، يعيشان في ركن بعيد من الغابة على مسيرة أكثر من يوم كامل من البلدة.

وفي خلال ساعة من استيقاظها، فارقت الفتاة الشاحبة التي أنجبته الحياة، بسبب الحزن أو الطاعون، كما ذكر طبيب البلاط. أو كما أشار البعض بسبب جرعة من السم الإيطالي الناجع، دست لها في كأس من النبيذ المنكه. وبينما نزل الرسول الأمين الذي يحمل الطفل عن صهوة جواده المنهك ليطرق باب كوخ الراعي البسيط، كان جسد الأميرة يدفن في قبر، حفر في ساحة كنيسة مهجورة خلف بوابات المدينة. وقيل إن هناك جسدًا آخر يرقد في ذلك القبر أيضًا؛ جسد لشاب أجنبي رائع الجمال، وقد تم تقييد يديه خلف ظهره بحبل معقود، وفي صدره أثر طعنات دامية متعددة.

على الأقل كانت هذه هي الحكاية المتداولة بين الناس همسًا. لكن المؤكد أن الملك العجوز أرسل -وهو على فراش الموت- في طلب الفتى؛ سواء كان ذلك بسبب شعوره بالندم على الإثم العظيم الذي اقترفه، أو لمجرد رغبته في ألا يخرج حكم المملكة عن إطار سلالته. تلا ذلك اعترافه به كوارث لعرشه في حضور مجلس مستشاريه.

ويبدو أنه من أول لحظة بعد الاعتراف به، أظهر الفتى علامات تدل على ذلك الشغف الفائق بالجمال، مما سيكون له عظيم الأثر على حياته فيما بعد. فقد تحدث الذين اصطحبوه للجناح المخصص له عن صيحة السعادة التي ندت عن شفتيه عندما رأى الثياب الناعمة والمجوهرات الثمينة التي أعدت له، وعن السعادة البالغة وهو يلقي جانبًا سترته الجلدية الخشنة، ومعطفه الغليظ المصنوع من فراء الخراف. كان يفتقد أحيانًا حريته التي تمتع بها أثناء حياته في الغابة، بالإضافة لغيظه المستمر من مراسم البلاط المملة، التي تستغرق الكثير من وقته كل يوم. لكن القصر الرائع - قصر البهجة كما كان يطلق عليه- الذي صار حاكمًا عليه، بدا له وكأنه عالم جديد خلق من أجل متعته.

في أول فرصة تسنح له للهرب من مجلس المستشارين أو من قاعة الاجتماعات، كان يركض ليهبط السلم الكبير الذي تزينه الأسود المصنوعة من النحاس المذهب، والذي صنعت درجاته من الرخام السماقي. كان يتجول من حجرة لأخرى، ومن دهليز لآخر، وكأنه يبحث في الجمال عن مسكن للألم، أو نوع من العلاج للمرض.

وفي خلال رحلاته الاستكشافية تلك كما كان يطلق عليها - وقد كانت بالنسبة له رحلات حقيقية بالفعل يتجول فيها خلال أرض رائعة- كان يرافقه أحيانًا غلمان البلاط ممشوقو القوام، بشعرهم الأشقر، وعباءاتهم الواسعة، وأشرطتهم المبهجة المتطايرة. لكنه في الغالب كان يبقى وحده، وقد استشعر بغريزته - كأنه يتنبأ بالغيب- أنه

من الأفضل أن يتعلم خفايا الفن في السر، وأن الجمال مثل الحكمة، يفضل المتعبد المنفرد بوحدته.

انتشرت العديد من الحكايات الغريبة عنه في تلك الفترة: فقد حُكي أن عمدة سمينًا جاء ليلقي خطبة منمقة نيابة عن أهالي بلدته، لمحه راكعًا في إعجاب بالغ أمام لوحة ضخمة وصلت للتو من فينيسيا، وأن ذلك بدا وكأنه إعلان عن عبادة آلهة جديدة. وفي مناسبة أخرى لم يتمكنوا من العثور عليه لعدة ساعات، وبعد بحث طويل عثروا عليه في غرفة صغيرة في أحد أبراج القصر الشمالية، وهو يتأمل، بافتتان شديد، جوهرة إغريقيَة حفرت عليها صورة أدونيس. كما تحاكى الناس قائلين أنه شُوهد وهو يلثم بشفتيه الدافئتين الجبين الرخامي البارد لأحد التماثيل العتيقة، والذي عثر عليه في قاع النهر عند بناء جسر حجري، وقد نقش على التمثال اسم عبد هادريان الآتي من بيثنيا. وفي ذات مرة قضى ليلة كاملة وهو يراقب أثر ضوء القمر على صورة فضية لإنديميون.

كانت جميع المواد النادرة والباهظة الثمن تشكل مصدر انبهار بالغ بالنسبة له، وقد أرسل العديد من التجار إلى بلاد بعيدة للحصول عليها. فذهب بعضهم لشراء العنبر من صيادي البحار الشمالية، بينما ذهب البعض الآخر لمصر؛ للبحث عن حجر الفيروز الأخضر الغريب، الذي لا يوجد سوى في مقابر الملوك، والذي يقال إن له خصائص سحرية. وذهب بعضهم لبلاد فارس بحثًا عن البُسط الحريرية، والآنية المصنوعة من الفخار المطلي. بينما توجه آخرون للهند لشراء الأقمشة

الرقيقة والعاج المصبوغ، وحجر القمر والأساور المصنوعة من حجر اليشم، وخشب الصندل، وطلاء المينا الأزرق اللون، والشيلان المنسوجة من الصوف الناعم.

لكن أكثر ما كان يشغل باله، هو الرداء الذي سيلبسه في حفل تتويجه. الرداء المنسوج من الذهب والتاج المرصع بالياقوت، والصولجان المزين بصفوف وحلقات من اللؤلؤ. وفي الواقع كان هذا هو ما يشغل باله الليلة، بينما هو مستلقٍ على الأريكة الوثيرة، يراقب قطعة خشب الصنوبر الضخمة التي تحترق في المدفأة المفتوحة. وضعت التصميمات بيد أعظم فناني ذلك العصر، وقد قُدمت له منذ أشهر عديدة مضت، فأصدر أوامره بأن يكد العمال ليلًا ونهارًا حتى ينتهوا من تنفيذها، وأن يتم البحث في أرجاء العالم بأسره عن الجواهر التي تليق بعملهم هذا. تخيل نفسه واقفًا عند مذبح الكاتدرائية، مرتديًا ملابس الملك الفاخرة، فارتسمت ابتسامة على شفتيه الفتيتين، وبرقت عيناه الداكنتان.

نهض من مكانه بعد فترة من الوقت، ومال على إفريز المدفأة المزخرف، وهو يجول بنظره عبر الغرفة المعتمة الإضاءة. تزينت الجدران بالأبسطة المزخرفة التي رُسمت عليها مشاهد تصور انتصار الجمال. وفي أحد الأركان قبعت خزانة ضخمة، مرصعة بالعقيق واللازورد. بينما كانت هناك في قبالة النافذة خزانة أخرى غريبة الصنع طليت بالورنيش، وزينت بالذهب، وقد علتها بعض الكؤوس الرقيقة، المصنوعة من الزجاج الوارد من فينيسيا، وكذلك كأس من

العقيق اليماني الداكن. وزينت زهور الخشخاش المطرزة بلون شاحب غطاء السرير الحريري، وكأنها قد تساقطت من يد النوم المنهكة، بينما ارتفعت مظلة الفراش المخملية على أعمدة عالية من العاج، اتخذت شكل أعواد الغاب، وأطلت من المظلة مجموعات من ريش النعام المتواثب كالزبد الأبيض ناحية السقف الفضي الشاحب المزخرف. في حين انتصب تمثال لنرسيس من النحاس الأخضر، وهو يقف ضاحكًا، وممسكًا بمرآة لامعة أعلى رأسه، بينما رقد على الطاولة طبق مسطح من حجر الجمشت.

شاهد في الخارج قبة الكاتدرائية الضخمة، وهي ترتفع مثل الفقاعة فوق باقي المنازل التي غمرتها الظلال، والحرس المنهكون يروحون جيئة وذهابًا على الشرفة التي يلفها الضباب عند النهر. في مكان بعيد من البستان كان هناك عندليب يغرد، وقد سرى عطر الياسمين الخافت عبر النافذة المفتوحة. أبعد الفتى خصلات شعره البنية عن جبينه، ثم التقط عودًا، وداعب الأوتار بأصابعه. تراخى جفناه، وغمره شعور غريب بالكسل. لم يسبق له الشعور بهذه الدرجة من السعادة البالغة، المستمدة من سحر وغموض الأشياء الجميلة.

عندما دقت ساعة البرج معلنة منتصف الليل، لمس جرسًا، فدخل الغلمان ليبدلوا ملابسه بتكلف شديد، وصبّوا ماء الورد على يديه، ونثروا الزهور على وسادته. وبعد رحيلهم ببضع دقائق، خلد إلى النوم.

وبينما هو نائم، شاهد حلمًا، وكان هذا ما حلم به:

رأى نفسه واقفًا في غرفة علية طويلة، منخفضة السقف، وسط ضجيج العديد من أنوال النسيج. تسلل ضوء النهار ضعيفًا، من خلال النوافذ التي تغطيها القضبان الحديدية، فظهرت له هيئات النساجين الناحلة، وهم منحنين على عملهم. جلس أطفال شاحبو الوجوه- يبدو عليهم المرض- على العوارض الخشبية الضخمة، وكلما مر المكوك بين خيوط السدى، رفعوا المشط الخشبي الثقيل. وعندما يتوقف المكوك كانوا يسقطون المشط الخشبي ليدكوا خيوط النسيج. ظهر أثر الجوع على وجوههم، وأخذت أياديهم النحيلة ترتعد وتهتز. في حين جلست بعض النساء المنهكات، إلى طاولة الخياطة، بينما امتلأ المكان بالروائح البشعة؛ فكان الهواء فاسدًا وثقيلًا، والجدران تقطر من أثر الرطوبة.

ذهب الملك الشاب إلى أحد النساجين ووقف بجواره ليشاهده وهو يعمل.

التفت له عامل النسيج بغضب قائلًا: «لِمَ تراقبني؟ هل أنت جاسوس أرسله لنا سيدنا؟».

سأله الملك الشاب: «ومن يكون سيدك؟».

صاح عامل النسيج بمرارة: «سيدنا! إنه رجل مثلي تمامًا. وفي الواقع لا فارق بيننا سوى هذا... فهو يرتدي أفخر الملابس بينما أرتدي أنا رث الثياب. وبينما أنا أعاني الضعف من شدة الجوع، فهو يعاني من التخمة إلى حد كبير».

قال الملك الشاب: «بلادنا حرة، وأنت لست عبدًا مملوكًا لأحد».

رد عامل النسيج قائلًا: «في الحرب يستعبد القوي الضعيف، وفي السلم يستعبد الغني الفقير. يجب أن نعمل كي نبقى على قيد الحياة، وهم لا يمنحوننا سوى الفتات لدرجة أننا نموت. نكد في العمل لديهم طوال اليوم، ويكدسون الذهب في خزائنهم، بينما يموت أطفالنا قبل الأوان، وتتحول ملامح من نحب، حتى يكسوها القسوة والشر. نعصر العنب، ويحتسي سوانا النبيذ. ونزرع الذرة، بينما خزائننا خاوية. فنحن مقيدون بالسلاسل رغم أن الأعين لا تراها، ونحن عبيد بالرغم من أننا نُعد أحرارًا».

سأل الملك: «هل هذا هو حال الجميع؟».

رد عامل النسيج: «هذا حال الجميع. الشباب والشيوخ، والنساء والرجال، والأطفال، والذين تقدمت بهم سنوات العمر. فالتجار يسحقوننا، وعلينا أن نأتمر بأوامرهم. والكاهن يمر وهو يصلي، ويعبث بحبات مسبحته، ولا يهتم أي شخص بشأننا. وفي حوارينا الضيقة التي لا تدخلها الشمس، يزحف الفقر بعينيه الجائعتين، وتتبعه من كثب الذنوب بوجهها الملطخ. يوقظنا البؤس من نومنا في الصباح، ويجالسنا الخزي في المساء. لكن لِمَ يهمك أنت هذا الأمر؟ فأنت لستَ واحدًا منا؛ فملامح وجهك تكسوها السعادة البالغة». واستدار متجهمًا، وهو يمرر المكوك عبر النول، فلاحظ الملك الشاب أن به خيوطًا من الذهب.

اعتراه شعور بالغ بالرعب، وقال لعامل النسيج: «ما هذا الرداء الذي تنسجه؟»،

رد قائلًا: «إنه الرداء الذي سيلبسه الملك الشاب في حفل تتويجه. وما شأنك أنت بالأمر؟».

صاح الملك الشاب صيحة عالية، ثم استيقظ من نومه. ويا للعجب! فقد وجد نفسه في حجرته، وعبر النافذة رأى القمر الضخم بلون العسل، معلقًا وسط السماء المعتمة.

ثم ما لبث أن غرق في النوم ثانية وهو يحلم، وكان هذا ما رآه في حلمه:

رأى نفسه ممددًا على سطح سفينة ضخمة، يعمل على مجاديفها مائة من العبيد. وجلس على البساط إلى جواره ربان السفينة. كان لونه أسود كالأبنوس، وعمامته من الحرير القرمزي. أثقلت أذنيه أقراط ضخمة من الفضة، وأمسك بين يديه ميزانًا من العاج.

كان العبيد عرايا، سوى من قطعة من القماش تلتف حول خاصرتهم، وقد ربط كل واحد منهم بمن يجاوره بالسلاسل. التمعت أشعة الشمس الحارة فوقهم، بينما ركض رجال زنوج آخرون جيئة وذهابًا عبر الممر بينهم، وهم يجلدونهم بكرابيج من الجلد. مدّوا أذرعهم النحيلة، وجذبوا المجاديف الثقيلة عبر الماء، فتطاير الرذاذ المالح من المجاديف.

وصلوا أخيرًا إلى خليج صغير، وشرعوا في قياس عمق المياه. هبّت ريح خفيفة من الشاطئ، فغطت سطح السفينة وشراعها الضخم بغبار أحمر خفيف. ظهر ثلاثة أعراب يمتطون الحمير البرية، وألقوا صوبهم بالرماح. التقط ربان السفينة قوسًا مصبوغًا بالألوان، فأصاب أحدهم في حلقه، فسقط في الماء متثاقلًا، فهرب رفيقاه. وتبعتهم ببطء على ظهر ناقة، امرأة التفت بخمار أصفر اللون، ظلت تتلفت بين حين وآخر ناحية الجسد الميت.

ما إن ألقوا بالهلب، وأنزلوا الشراع، حتى نزل الزنوج إلى بطن السفينة وجلبوا سلمًا طويلًا من الحبال، رُبطت به أثقال من الصلب. ألقى به الربان عبر جانب السفينة، بعد أن ثبّت أطرافه في دعامتين من الحديد. عندئذ أمسك الزنوج بأصغر العبيد سنًا، وخلعوا عنه القيود، ثم ملأوا أنفه وأذنيه بالشمع، وربطوا صخرة كبيرة حول خصره. هبط العبد السلم منهكًا، ثم اختفى في البحر، وتصاعدت بعض الفقاعات في المكان الذي غاص فيه. نظر بعض العبيد الآخرين بفضول عبر جانب السفينة. وعند مقدمة السفينة جلس ساحر مهمته أن يسحر أسماك القرش، وهو يدق برتابة على سطح طبلة.

بعد فترة من الوقت، ارتفع الغواص من وسط الماء، وقبض على السلم لاهثًا، وهو يمسك بلؤلؤة في يده اليمنى. أخذها منه الزنوج، ثم دفعوه في الماء مرة أخرى، بينما غرق العبيد في النوم مستندين إلى مجاديفهم.

عاد المرة تلو الأخرى، جالبًا معه في كل مرة لؤلؤة جميلة. وزن الربان اللآلئ، ثم وضعهم في كيس صغير من الجلد الأخضر.

حاول الملك أن يتحدث، إلا أن لسانه بدا وكأنه التصق بسقف حلقه، وعجزت شفتاه عن الحركة. تبادل الزنوج الثرثرة فيما بينهم، وأخذوا يتشاجرون حول عقد من الخرز اللامع، بينما حلق طائران من طيور الكركي حول السفينة.

في النهاية، صعد الغواص للمرة الأخيرة، وكانت اللؤلؤة التي جلبها تلك المرة معه أجمل من كل لآلئ مملكة هرمز؛ فقد كانت باستدارة البدر، وأنصع بياضًا من نجم الصباح. لكن وجهه كان شاحبًا بطريقة غريبة، وما لبث أن سقط على سطح السفينة، والدماء تتدفع من أذنيه ومن أنفه. ارتعش جسده بعض الشيء، ثم استكان تمامًا. هز الزنوج أكتافهم، ثم ألقوا بجسده في الماء.

ضحك الربان، ومد يده ليلتقط اللؤلؤة. وعندما رآها، قرّبها من جبينه وهو ينحني قائلًا: «سوف تكون هذه لأجل صولجان الملك الشاب». ثم أشار للزنوج أن يرفعوا الهلب.

وعندما سمع الملك الشاب قوله هذا، صاح صيحة عظيمة، واستيقظ من نومه. ورأى عبر النافذة أصابع الفجر الرمادية الطويلة، وهي تتشبث بالنجوم الباهتة.

ما لبث أن خلد إلى النوم مرة أخرى وعاودته الأحلام، وكان هذا ما رآه:

رأى نفسه تلك المرة سارحًا، وسط غابة معتمة، مليئة بالفاكهة الغريبة والزهور الرائعة السامة. أطلقت الأفاعي فحيحها وهو يمر إلى جوارها، وطارت ببغاوات زاهية الألوان من غصن لآخر، وهي تطلق صياحها. استلقت سلاحف ضخمة وسط الطين الحار، وقد غرقت في النوم. وامتلأت الأشجار بالقرود والطواويس.

واصل السير حتى وصل لأطراف الغابة، حيث شاهد حشدًا ضخمًا من الرجال، يكدون في العمل في قاع نهر جفت مياهه. صعدوا الجرف المنحدر كالنمل، وحفروا أخاديدًا عميقة في الأرض، واختفوا بداخلها. حطم بعضهم الصخور بفؤوس ضخمة، بينما بحث البعض الآخر بيديه وسط الرمال. انتزعوا الصبارات من جذورها، ودهسوا بأقدامهم الزهور القرمزية اللون. هرولوا مسرعين وهم ينادون بعضهم بعضًا، ولم يكن أي منهم يجلس دون عمل.

وفي جوف مغارة مظلمة، جلس الموت والجشع وهما يراقبانهم. قال الموت: «أنا منهك، فلتمنحني ثلثهم ودعني أرحل»، لكن الجشع هز رأسه قائلًا: «إنهم عبيدي أنا».

فقال له الموت: «ما هذا الذي بيدك؟»».

فرد قائلًا: «معي ثلاث حبات من الذرة. وما شأنك أنت؟»».

صاح الموت قائلًا: «إذن أعطني واحدة منهم؛ كي أزرعها في حديقتي. واحدة فقط وسوف أرحل»».

قال الجشع: «لن أعطيك أي شيء»، ثم أخفى يده وسط ثنايا ثيابه.

ضحك الموت، وتناول كأسًا، ثم غطسه في بركة من الماء،

فتصاعدت الملاريا من الكأس. مرت وسط الحشد الضخم، فسقط ثلثهم ميتًا. تبعها ضباب بارد، وزحفت إلى جانبها الثعابين المائية.

وعندما رأى الجشع أن ثلث الحشد قد قضى نحبه، خبط صدره بقبضته وانتحب. صاح: «لقد قتلت ثلث عبيدي. فلتبتعد من هنا. هناك حرب تدور رحاها في جبال بلاد التتار، وملوك كلا الجانبين ينادونك. وقد ذبح الأفغان ثورًا أسودًا، وهم يسيرون الآن للحرب، وقد قرعوا على دروعهم برماحهم، وارتدوا خوذاتهم الحديدية. فلِمَ يهمك واديَّ أنا حتى تتلكأ به؟ فلترحل ولا تعد هنا مرة أخرى».

أجاب الموت قائلًا: «لا، لن أرحل حتى تعطيني حبة من حبات الذرة».

لكن الجشع أحكم إغلاق قبضته، وجزّ على أسنانه. غمغم قائلًا: «لن أعطيك أي شيء».

فضحك الموت، والتقط حجرًا أسود اللون، وألقاه في الغابة، فتصاعدت الحمى من وسط أجمة من الشوكران مرتدية ثوبًا من اللهب. مرت وسط الحشد وهي تمسهم، فسقط كل من مسته ميتًا، بينما ذبلت الحشائش تحت قدميها أثناء سيرها.

ارتعد الجشع، ونثر الرماد على رأسه. صاح قائلًا: «يا لك من قاس! يا لك من قاس! هناك مجاعة في مدن الهند المحاطة بالأسوار، كما جفت صهاريج المياه في سمرقند. وهناك مجاعة أيضًا في مدن مصر التي تحيطها الأسوار، وقد أتت أسراب الجراد من الصحراء. لم يفيض النيل عن ضفتيه، وألقى الكهنة باللعنات على إيزيس وأوزوريس... فلتذهب إلى أولئك الذين هم بحاجة إليك، ولتترك لي عبيدي».

أجاب الموت قائلًا: «لا، لن أرحل حتى تعطيني حبة من حبات الذرة».

قال الجشع: «لن أعطيك أي شيء على الإطلاق».

فضحك الموت مرة أخرى، ووضع أصابعه بين شفتيه وأطلق صفيرًا، حتى جاءت امرأة تطير عبر السماء، كُتب على جبينها «الطاعون»، وقد أحاط بها سرب من النسور الناحلة. غطت الوادي بجناحيها، حتى لم يبق أحد على قيد الحياة.

هرب الجشع صارخًا وسط الغابة. وقفز الموت على ظهر جواده الأحمر اللون، وابتعد مسرعًا، وقد فاق الريح في سرعة ركضه.

ومن بين الوحل في قاع الوادي، زحفت التنانين والوحوش البشعة التي غطتها الحراشف، وجاءت الضباع تسير على الرمال، وتتشمم الهواء بأنوفها.

بكى الملك الشاب وقال: «من كان هؤلاء الرجال، وعما كانوا

يبحثون؟».

أجابه شخص واقف إلى جواره قائلًا: «كانوا يبحثون عن الياقوت لتاج الملك».

ففزع الملك الشاب، واستدار ليرى رجلًا يرتدي ملابس الحجيج، ويمسك بيده مرآة من الفضة.

شحب وجهه وقال: «لأي ملك؟».

فأجابه الحاج قائلًا: «انظر في هذه المرآة، وسوف تراه».

فنظر في المرآة، وعندما رأى ملامح وجهه صاح صيحة عظيمة، واستيقظ من نومه، فوجد أشعة الشمس المشرقة تتخلل الغرفة، وصوت الطيور يرتفع مغردًا بين أشجار الحديقة.

دخل الحاجب وكبار الوزراء، وانحنوا أمامه، وجلب له الغلمان رداءه المنسوج من الذهب، ووضعوا أمامه التاج والصولجان.

نظر لهم الملك الشاب، فوجدهم آية في الجمال. كانوا أجمل من أي شيء رآه من قبل. لكنه ما لبث أن تذكر أحلامه، فقال للنبلاء: «خذوا هذه الأشياء بعيدًا، فلن أرتديها».

انتابت الدهشة أفراد الحاشية، وضحك بعضهم، وهم يعتقدون أنه يمزح.

لكنه حدثهم بنبرة حازمة وقال مرة أخرى: «خذوا هذه الأشياء بعيدًا، واخفوها عني. فلن أرتديها بالرغم من أن اليوم هو حفل

تتويجي. فقد نسجت يد الألم البيضاء هذا الرداء على نول الحزن. وهناك دماء في قلب الياقوت، بينما يرقد الموت في قلب اللؤلؤ». ثم حكى لهم أحلامه الثلاثة.

وعندما سمعه أفراد الحاشية، تبادلوا النظرات وتهامسوا قائلين: «بالتأكيد انتابه الجنون، فما الحلم سوى مجرد حلم، وما الرؤيا إلا مجرد رؤيا. فهي ليست حقائق حتى يهتم بها المرء. وما شأننا نحن بحياة أولئك الذين يكدّون في العمل من أجلنا؟ هل يمتنع المرء عن تناول الخبز حتى يرى مَن زرع القمح، أو يمتنع عن احتساء النبيذ حتى يتبادل الحديث مع مَن زرع العنب؟».

وجّه الحاجب حديثه للملك الشاب قائلًا: «يا مولاي، أستحلفك أن تدع هذه الأفكار السوداوية جانبًا، وأن ترتدي ثيابك الفاخرة هذه، وتضع التاج على رأسك. وإلا كيف سيعرف الناس أنك الملك لو لم تكن ترتدي ثياب الملك؟».

فنظر له الملك الشاب، وقال متسائلًا: «أحقًّا؟ ألن يعرفوا أنني الملك لو لم أرتد ملابس ملكية؟».

فصاح الحاجب قائلًا: «لن يعرفوك يا مولاي!».

رد قائلًا: «كنت أعتقد أن هناك أناس لهم طبائع الملوك، لكن ربما تكون أنت محقًّا. لكن بالرغم من ذلك لن أرتدي هذه الثياب، ولن أتوج بهذا التاج. فكما أتيت لهذا المكان سأخرج منه».

ثم أمرهم جميعًا بالخروج ما عدا غلامًا واحدًا أبقاه برفقته. كان فتى يصغره بعام واحد، أبقاه لخدمته. وبعد أن استحم بماء نظيف، فتح صندوقًا ضخمًا ملونًا، وأخرج منه سترته الجلدية، ومعطفه الغليظ المصنوع من فراء الخراف، اللذين كان يرتديهما وهو يرعى أغنام الراعي على جوانب التلال. ارتدى ملابسه هذه، وأمسك في يده عصا الراعي البدائية.

اتسعت عينا الغلام الزرقاء في دهشة، وقال باسمًا: «يا مولاي، أرى رداءك وصولجانك، لكن أين تاجك؟».

فقطع الملك الشاب فرعًا من الأشواك المتسلقة على الشرفة، ولفها ليصنع منها حلقة ثم وضعها على رأسه.

أجاب قائلًا: «سيكون هذا هو تاجي».

وخرج هكذا من غرفته، مرتديًا ملابسه تلك، ثم دخل القاعة الكبرى، حيث كان كل النبلاء في انتظاره.

فتضاحك النبلاء وصاح بعضهم قائلين: «يا مولاي، إن الناس ينتظرون مليكهم، وأنت ستريهم شحاذًا». بينما انتاب الغضب بعضهم، وقالوا: «أنه سيجلب العار على دولتنا. هو غير جدير بأن يكون سيدنا». لكنه لم يجبهم بكلمة، بل مر في طريقه، وهبط السلم المصنوع من الرخام السماقي اللامع، ثم خرج من البوابات النحاسية وامتطى جواده، متوجهًا نحو الكاتدرائية، والغلام الصغير يركض إلى جانبه.

تضاحك الناس قائلين: «هذا مهرج الملك، يمر عابرًا في طريقه»، وسخروا منه.

فجذب اللجام وقال: «لا، بل أنا الملك». وحكى لهم أحلامه الثلاثة.

خرج رجل من بين الحشد، وخاطبه بمرارة قائلًا: «يا سيدي، ألا تعلم أن حياة الفقراء تنبثق من رفاهية الأثرياء؟ فنحن نحيا من بذخكم، ومن رذائلكم نجني خبزنا. الكد من أجل سيد قاس أمر غاية في المرارة، لكن الأكثر مرارة هو ألّا يكون لدينا سيد كي نكد من أجله. هل تعتقد أن الغربان سوف تتولى إطعامنا؟ وهل لديك حلٍ لمثل هذه الأمور؟ هل ستقول للمشتري عليك أن تشتري بهذا السعر، وتأمر البائع أن يبيع بذاك السعر؟ لا أعتقد هذا. لذا فلتعد إلى قصرك، ولترتدي ملابسك البنفسجية، ومنسوجاتك الفاخرة. فما شأنك بنا وبما نعانيه؟».

سأل الملك الشاب: «أليس الأثرياء والفقراء إخوة؟».

أجابه الرجل: «بلى، واسم الشقيق الثري هو قابيل».

امتلأت عينا الملك الشاب بالدموع، وهو يسير مواصلًا طريقه، وسط همهمات الحشد. شعر الغلام الصغير بالخوف فتركه لحاله، ومضى.

(2) وعندما وصل لبوابة الكاتدرائية الضخمة، مد الجنود مطاردهم للأمام قائلين: «ما الذي تريده هنا؟ لا أحد يدخل من هذه البوابة

سوى الملك».

(2) المطرد هو سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس الحرب.

فاحمّر وجهه من الغضب وقال لهم: «أنا الملك». وأبعَدَ مطاردهم، ودلف للداخل.

وعندما رآه الأسقف العجوز قادمًا بملابس راعي الغنم، قام من كرسيه، وقد اعترته الدهشة، وذهب للقائه قائلًا: «يا بني، هل هذه ملابس ملك؟ وبأي تاج سوف أتوجك، وأي صولجان سوف أضعه في يدك؟ فمن المؤكد أن هذا اليوم يجب أن يكون مبهجًا لك، لا يومًا مليئًا بالإذلال».

فقال الملك الشاب: «وهل ترتدي البهجة ما قد صنعه الحزن؟». وحكى له أحلامه الثلاثة.

عندما سمعه الأسقف عقد حاجبيه، وقال: «يا بني، أنا رجل عجوز في خريف أيامي، وأعرف أن هناك الكثير من الشر في هذا العالم. فاللصوص الأشداء يأتون من الجبال، ويخطفون الأطفال، ويبيعونهم للموريسكيين. والأسود تنتظر متربصة بالقوافل حتى تثب على الجمال. كما تخلع الخنازير البرية الذرة من جذورها في الوادي، وتقرض الثعالب الكروم في التلال. وينشر القراصنة الخراب على الساحل؛ فيحرقون سفن الصيادين ويسرقون شباكهم. بينما يحيا مرضى الجذام وسط مستنقعات الملح في بيوت من أعواد الغاب المجدول، ولا يقربهم أحد. ويسرح الشحاذون وسط المدن، ويشاركون الكلاب

الطعام. هل تستطيع أن تقضي على كل هذه الأشياء؟ هل ستتخذ مريض الجذام رفيقًا في فراشك، وتُجلِس الشحاذ على مائدة طعامك؟ هل سيطيع الأسد أوامرك؟ وينفذ الخنزير البري ما تطلبه منه؟ أليس من خلق البؤس أكثر حكمة منك؟ لذا لا أستطيع أن أمدح صنيعك هذا، وأرجو أن تعود للقصر، وأن ترسم السعادة على وجهك، وأن ترتدي الملابس التي تليق بالملك. وسأتوجك بتاج من الذهب، وأضع الصولجان المزين باللؤلؤ في يدك. أما بالنسبة لأحلامك، فلا تشغل بالك بها. فهموم هذا العالم أكبر من أن يحملها رجل واحد على كاهله، وأحزان العالم أثقل من أن يتحمل عبأها قلب واحد».

قال الملك الشاب: «هل تنطق هذه الكلمات في هذا البيت؟». ثم سار متخطيًا الأسقف، وصعد درجات السلم إلى المذبح، ووقف أمام تمثال المسيح.

وقف أمام تمثال المسيح، وعلى يمينه ويساره آنية رائعة من الذهب، وكأس به نبيذ أصفر، وزجاجة من الزيت المقدس. ركع أمام تمثال المسيح، والتمعت الشموع الكبيرة بجوار الضريح المزين بالجواهر، وتصاعد دخان البخور عبر القبة في خيوط زرقاء رفيعة. حنى رأسه وهو يصلي، فابتعد الكهنة بملابسهم المنشاة عن المذبح.

فجأة تصاعدت جلبة من الطريق في الخارج، ودخل النبلاء بسيوفهم المشرعة، والريش يهتز بقبعاتهم، ودروعهم الحديدية تلتمع. صاحوا قائلين: «أين هذا الحالم؟ أين الملك الذي يرتدي ملابس

الشحاذين- هذا الفتى الذي سيجلب العار على دولتنا؟ سوف نذبحه بكل تأكيد، فهو غير جدير بأن يحكمنا».

حنى الملك الشاب رأسه مرة ثانية، وصلى، وعندما انتهى من صلاته ونهض قائمًا، استدار لينظر لهم بحزن.

ويا للعجب! فعبر النوافذ الملونة، غمره ضوء الشمس، ونسجت أشعتها حوله رداءً أجمل من ذلك الذي صمموه من أجله. وأزهرت عصاه الميتة، فأينعت منها زنابق أنصع بياضًا من اللؤلؤ، وأزهر تاج الشوك الجاف، فأينعت منه ورود أكثر حمرة من الياقوت. أنصع بياضًا من اللآلئ الفاخرة كانت الزنابق، وسيقانها من الفضة اللامعة. وأكثر حمرة من الياقوت كانت الورود، وأوراقها من الذهب المطروق.

وقف هناك مرتديًا ملابس الملك، فانفتحت أبواب الضريح المزين بالجواهر، وانبعث نور روحاني رائع من بلور وعاء القربان المقدس بأشعته العديدة. وقف هناك بملابس الملك، وامتلأ المكان بمجد الرب، وبدت تماثيل القديسين وكأنها تتحرك داخل كواتها المحفورة. بملابسه الملكية الفاخرة وقف أمامهم، وصدحت موسيقى الأرغن، ونفخت الأبواق، وعلا صوت الفتية بالغناء.

ركع الناس، وقد ملأهم الشعور بالعجب، وأغمد النبلاء سيوفهم، وأظهروا الاحترام، بينما شحب وجه الأسقف وارتعدت يداه. صاح قائلًا: «لقد توجك من هو أعظم مني». ثم خر راكعًا.

نزل الملك الشاب من المذبح العالي، وتوجه لقصره عابرًا طريقه وسط الحشد، لكن لم يجرؤ أحدهم على أن يطالع وجهه، فقد كان كوجوه الملائكة.

* * *

عيد ميلاد الأميرة

اليوم هو عيد ميلاد الأميرة التي بلغت الثانية عشرة من عمرها، والشمس تلتمع بقوة في حدائق القصر. وبالرغم من كونها أميرة حقيقية، ومن الأسرة الملكية الإسبانية، إلا أنها كانت تحتفل بعيد ميلادها مرة واحدة فقط كل عام تمامًا مثل أبناء الأسر الفقيرة. لذا كان من الطبيعي أن تهتم البلاد كلها بأن يكون يومًا رائعًا. وقد كان يومًا رائعًا بالفعل.

انتصبت زهور التوليب المخططة على سيقانها مثل صفوف طويلة من الجنود، ونظرت بتحدٍّ عبر الحشائش تجاه الورود وقالت: «لقد صرنا في غاية الروعة مثلكِ الآن». رفرفت الفراشات البنفسجية، متنقلة بين الزهور وقد تناثر التبر على أجنحتها. وزحفت السحالي الصغيرة خارجة من بين شقوق الجدران، لتستلقي في وهج الشمس الأبيض. تشققت ثمار الرمان، وتكسرت بفعل الحرارة، وقد أظهرت قلوبها الحمراء الدامية. وحتى ثمار الليمون الصفراء الشاحبة، التي تدلت بوفرة من التعريشة المتهدمة وفي الممرات المعتمة، بدت وكأنها قد اكتسبت لونًا زاهيًا بفعل أشعة الشمس الرائعة. أما أشجار الماجنوليا، فقد تفتحت زهورها الكروية العاجية الضخمة، وملأت الجو بعبق عطرها.

سارت الأميرة الصغيرة بنفسها جيئة وذهابًا على الشرفة مع رفاقها، ولعبوا الغميضة حول المزهريات الحجرية والتماثيل القديمة، التي غطتها الطحالب في الحديقة. في الأيام العادية كان مسموحًا لها أن تلعب

مع الأطفال الذين هم في نفس منزلتها فقط، لذا دومًا ما كانت تلعب وحدها. لكن يوم ميلادها كان هو الاستثناء، وقد أعطى الملك أوامره بالسماح لها بدعوة من تشاء من أصدقائها الصغار، كي يأتوا للعب معها. كان هناك جو من الفخامة والجمال يحيط بهؤلاء الأطفال الإسبان رشيقي القوام، وهو يتحركون في أرجاء المكان: الأولاد بقبعاتهم الضخمة التي يزينها الريش، وعباءاتهم القصيرة التي تتطاير مع الهواء، والفتيات وهن يرفعن ذيول أثوابهن الطويلة المطرزة، ويحمين أعينهن من الشمس بمراوح ضخمة باللونين الأسود والفضي. لكن الأميرة كانت الأجمل بين الجميع، وأكثرهن أناقة تبعًا لذوق ذلك العصر. كان ثوبها من الساتان الرمادي، وقد طُرزت التنورة والأكمام المنتفخة بالفضة، وازدان مشد الخصر بصفوف من اللآلئ الفاخرة. وأثناء سيرها، أطل حذاءان صغيران، تزينهما زهور وردية ضخمة من أسفل طرف ثوبها. وكانت مروحتها الضخمة مصنوعة من قماش رقيق باللونين الوردي واللؤلؤي، أما شعرها الذي أحاط بوجهها الصغير الشاحب كهالة ذهبية فاتحة اللون، فقد شبكت فيه وردة بيضاء جميلة.

راقبهم الملك الحزين من إحدى نوافذ القصر، بينما وقف خلفه شقيقه الذي كان الملك يكرهه، دون بيدرو أمير أراجون، وإلى جواره جلس كاهن اعترافه، الذي كان كبير محققي ديوان التحقيق في غرناطة. شعر الملك بالحزن بدرجة أكبر من المعتاد. فبينما هو يراقب الأميرة، وهي تنحني بجدية طفولية لأقرانها الذين تجمعوا أمامها،

أو وهي تخفي ضحكاتها خلف مروحتها، حينما تسخر من دوقة ألباكركي المتجهمة التي كانت تصحبها دومًا، تذكّر والدتها الملكة الشابة التي بدا له أنها قد أتت منذ وقت قريب من بلاد فرنسا المبهجة لتذبل وسط كآبة البلاط الإسباني الفخم. فقد توفت بعد ستة أشهر فقط من ولادة طفلتها، وقبل أن ترى براعم اللوز وهي تينع مرتين في البستان، أو تقطف محصول العام الثاني من شجرة التين العجوزة الخشنة الكائنة في وسط الساحة، التي ملأتها الحشائش الآن. كان حبه لها من القوة لدرجة أنه لم يتحمل حتى أن يخفيها القبر بعيدًا عنه. فقد قام طبيب موريسكي بتحنيطها مقابل العفو عنه، حيث كان محكومًا عليه بالموت لتهم متعلقة بالهرطقة وممارسة السحر، كما أبلغ عنه البعض مجمع العقيدة والإيمان.

كان جسدها لا يزال راقدًا في نعشها، الذي تغطيه المنسوجات المطرزة، داخل كنيسة القصر الصغيرة المبنية من الرخام الأسود، تمامًا كما حملها الرهبان في ذلك اليوم العاصف من شهر مارس منذ اثني عشر عامًا مضت. ولمرة واحدة شهريًّا، كان الملك يلتف بعباءة داكنة، ويحمل مصباحًا خافتًا في يده، ثم يدخل ليركع بجانبها مناديًا: «يا مليكتي! يا مليكتي!». كان أحيانًا يكسر التقاليد الرسمية الإسبانية التي تتحكم في جميع جوانب الحياة، وتضع حدودًا حتى لحزن الملك، فكان يقبض على يديها الشاحبتين المزينتين بالمجوهرات، في نوبة من الحزن العنيف، ويحاول أن يوقظها بقبلاته المحمومة على وجهها البارد المصبوغ بالألوان.

بدا أنه يراها اليوم مرة أخرى تمامًا كما رآها لأول مرة في قصر فونتينبلو، عندما كان هو في الخامسة عشرة من العمر، وهي تصغره في السن. فقد أعلن مبعوث الكرسي البابوي خطبتهما رسميًا في تلك المناسبة، بحضور ملك فرنسا، وجميع الحاشية. وعاد هو بعدها إلى قصره حاملًا معه خصلة صغيرة من الشعر الأشقر، وذكرى شفتين طفوليتين وهما تميلان لتقبيل يده، وهو يركب عربته. تم الزفاف بعد ذلك سريعًا في بورجوس، وهي بلدة صغيرة على الحدود بين الدولتين. ودخلوا مدريد في موكب ضخم، مع الاحتفال التقليدي، وإقامة القداس العالي في كنيسة لا أتوشا، وأقاموا موكب أوتو دا في(3) بجدية أكثر من المعتاد، حيث تم تسليم حوالي ثلاثمائة من المهرطقين، ومن بينهم العديد من الإنجليز، إلى السلطات المدنية ليتم إعدامهم حرقًا.

(3) اشتهرت مواكب أوتو دا في في إسبانيا منذ القرن الخامس عشر، وهي تكفير علني عن الخطيئة كان يخضع له المدانون بالهرطقة أو الردة إبان سطوة محاكم التفتيش، وكان يتبعه تنفيذ السلطة المدنية للحكم الذي قد يصل إلى الاعدام حرقا.

من المؤكد أنه أحبها بجنون، حتى اعتقد البعض أنها أضرت بالبلاد التي كانت حينها في حالة حرب مع انجلترا للسيطرة على إمبراطورية العالم الجديد. كان بالكاد يسمح لها بالابتعاد عن ناظره، ونسي من أجلها، أو بدا عليه أنه نسي كل الأمور الهامة المتعلقة بالدولة. ومع تلك الحالة من العمى التام التي يتسبب فيها العشق لعبيده، فشل في ملاحظة أن كل تلك الاحتفالات الباذخة التي كان هدفها إسعادها،

زادت من أعراض المرض الغريب الذي كانت تعاني منه.

وبعد أن ماتت، بدا لفترة من الوقت وكأنه فقد عقله. ولا شك أنه كان سيتنازل عن العرش بصورة رسمية، ويتقاعد في دير رهبان الترابيست الكبير في غرناطة، إذ كان بالفعل يحمل لقب الرئيس الشرفي للدير، إلا أنه كان يخشى أن يترك الأميرة الصغيرة تحت رحمة شقيقه الذي اشتهر بالقسوة حتى في إسبانيا، والذي حامت حوله الشكوك بأنه تسبب في موت الملكة، عن طريق زوج من القفازات المسمومة، قدمها لها كهدية عندما زارته في قصره بأراجون.

وحتى بعد انتهاء فترة الثلاث سنوات التي حددها -بمرسوم ملكي- للحداد الرسمي في كل الأراضي الواقعة تحت حكمه، لم يسمح أبدًا للوزراء بالحديث عن أي مشاريع زواج جديدة. وعندما أرسل له الإمبراطور بنفسه عارضًا عليه الزواج من ابنة شقيقه الجميلة أرشيدوقة بوهيميا، أمر الرسل بإبلاغ سيدهم أن ملك إسبانيا متزوج بالفعل من الحزن، وأنه بالرغم من كون عروسه عاقرًا، إلا أنه يحبها أكثر من الجمال. وقد كلفته تلك الإجابة الأقاليم الغنية الواقعة في منطقة الأراضي الواطئة، إذ ما لبثوا بعدها، وبتحريض من الإمبراطور، أن ثاروا ضده بقيادة بعض المتطرفين المنتمين للكنيسة المصلحة.

بدا له أن ذكريات زواجه كلها، بلحظات سعادته البالغة وبالألم الفظيع الذي استشعره عند نهايته المفاجئة، تعود إليه اليوم، وهو يراقب الأميرة أثناء لعبها على الشرفة. كانت تتمتع بطبع الملكة

المشاكس اللطيف، وتهز رأسها بعناد بنفس الطريقة، ولها نفس انحناءة الشفتين الجميلتين، وذات الابتسامة الرائعة - كانت حقًّا ابتسامة فرنسية حقيقية- وهي ترفع نظرها بين الحين والآخر ناحية النافذة، أو وهي تمد يدها الصغيرة لأحد النبلاء الإسبان الأجلاء كي يقبّلها. لكن ضحك الأطفال الصاخب أزعجه، كما شعر أن وهج الشمس الساطع يسخر من أحزانه، وبدا أن هناك رائحة عطور غريبة كتلك التي يستخدمها العاملون في التحنيط - أم تراه كان يتخيل الأمر فقط؟ - عالقة في جو الصباح المنعش. دفن وجهه بين كفيه، وعندما وجهت الأميرة نظرها للأعلى مرة أخرى، كان الملك قد دخل، وأغلقت الستائر.

قطبت الأميرة الصغيرة معبرة عن استيائها، وهزت كتفيها. بالتأكيد بمقدوره البقاء معها في يوم عيد ميلادها. فما أهمية شؤون الدولة التافهة؟ أم تراه ذهب لتلك الكنيسة الصغيرة الكئيبة، حيث الشموع مشتعلة على الدوام، وحيث هي ممنوعة من الدخول؟ يا لها من سخافة منه، بينما الشمس مشرقة والجميع يشعرون بالسعادة! وستفوته هكذا مشاهدة مصارعة الثيران الصورية التي كانوا ينفخون الأبواق إعلانًا عنها بالفعل الآن، هذا بخلاف مسرح العرائس، وكل الفقرات الأخرى الرائعة. لقد كان عمها وكبير محققي ديوان التحقيق أكثر عقلانية منه، فقد خرجا إلى الشرفة، وألقيا على مسامعها المجاملات اللطيفة. لذا هزت رأسها الجميل، وأمسكت بيد دون بيدرو، وسارت بتمهل، وهي تهبط درجات السلم نحو سرادق طويل

من الحرير البنفسجي نُصب في طرف الحديقة. تبعها باقي الأطفال بالترتيب، حيث تقدم أولئك الذين يحملون ألقابًا أكثر أولًا.

خرج صف من الفتية النبلاء الذين ارتدوا ملابس مصارعي الثيران لملاقاتها. وجاء كونت تيبرا نويفا الذي كان صبيًا وسيمًا في حوالي الرابعة عشرة من العمر، وخلع قبعته كاشفًا رأسه بكياسة النبلاء الإسبان، ثم قادها بكل وقار نحو كرسي صغير من الذهب والعاج، وُضع على منصة مرتفعة عن الساحة. تجمع الأطفال حولها، وهم يحركون مراوحهم الكبيرة، ويتهامسون فيما بينهم. بينما وقف دون بيدرو، وكبير محققي ديوان التحقيق عند المدخل، وهم يتبادلون الضحك. حتى الدوقة -الوصيفة الأولى كما كان يطلق عليها، والتي كانت امرأة نحيلة، قاسية الملامح، ترتدي ثوبًا له قبة صفراء- لم تبدُ معتلة المزاج كعادتها، وارتسم ما بدا وكأنه ابتسامة باردة على وجهها المتغضن؛ فارتعشت شفتاها النحيلتان الشاحبتان.

كان عرضًا رائعًا للغاية لمصارعة الثيران، واعتقدت الأميرة أنه ألطف كثيرًا من مصارعة الثيران الحقيقية التي اصطحبوها لمشاهدتها في إشبيلية، بمناسبة زيارة دوق بارما لوالدها. إذ تقافز بعض الفتية، وقد امتطوا العصي الخشبية التي لها رؤوس خيل والمزينة ببذخ، وهم يلوحون بالرماح الخشبية الطويلة التي ثبتت بها أشرطة زاهية الألوان. بينما سار البعض الآخر على أقدامهم، وهم يلوحون بعباءاتهم القرمزية أمام الثور، ويقفزون بخفة فوق الحاجز عندما يهاجمهم. أما بالنسبة للثور نفسه، فقد كان يشبه الثور الحقيقي تمامًا، بالرغم من

أنه صنع من فروع الصفصاف المغطى بالجلد المشدود. كان يصر أحيانًا على الركض حول الحلبة على ساقيه الخلفيتين بالرغم من أنه لا يوجد أي ثور حقيقي يحلم بالقيام بذلك. قدم عرضًا رائعًا، وأثار حماسة الأطفال، لدرجة أنهم وقفوا على المقاعد الخشبية، ولوحوا بمناديلهم المزينة بالدانتيل وصاحوا قائلين: «مرحى أيها الثور! مرحى أيها الثور!»، وكأنهم بالغين في السن. في نهاية المطاف وبعد صراع طويل، نُطحت خلاله العديد من الخيول الخشبية، وسقط عنها راكبوها، أسقط كونت تيبرا نويفا الصغير الثور على ركبتيه. وبعد أن حصل على الإذن من الأميرة كي يوجه له الضربة القاضية، أغمد سيفه الخشبي في عنق الحيوان بعنف أدى لفصل الرأس، فظهر الوجه الضاحك للسيد دي لورين الصغير ابن السفير الفرنسي في مدريد.

تم إخلاء الساحة بعد ذلك وسط تصفيق حار، وقام غلامان من الموريسكيين، يرتديان زيًا باللونين الأصفر والأسود بجر الخيول الخشبية الميتة بعيدًا. وبعد فاصل قصير قام خلاله لاعب أكروبات فرنسي بالمشي على الحبل، ظهرت بعض العرائس الإيطالية في العرض شبه الكلاسيكي لتراجيديا صفنبعل (4) على خشبة المسرح الصغير، الذي أقيم من أجل ذلك الغرض. كان أداؤهم جيدًا، وحركاتهم طبيعية للغاية، لدرجة أنه عند نهاية المسرحية كانت عينا الأميرة مبللتين بالدموع. وفي الواقع فقد بكى بعض الأطفال أيضًا، فقدموا لهم الحلوى لتهدئتهم. وقد تأثر كبير محققي ديوان التحقيق نفسه لدرجة أنه لم يتمالك نفسه، وقال لدون بيدرو أن الأمر بالنسبة له لا يطاق

كون تلك الدمى المصنوعة من الخشب والشمع الملون، والتي تحركها بعض الأسلاك، قد شعرت بالتعاسة لهذا الحد ولاقت سوء الحظ بدرجة بالغة.

(4) هي ملكة نوميدية، ابنة صدربعل جيسكو وزوجة صيفاقس زعيم قبيلة نوميدية، أقنعت زوجها بالمحاربة مع قرطاج ضد روما، وعندما هزم عام 203 ق.م. انتحرت.

بعد ذلك جاء ساحر إفريقي جلب معه سلة كبيرة مسطحة، مغطاة بقطعة من القماش الأحمر، ووضعها في منتصف الساحة. أخرج من عمامته مزمارًا غريبًا، مصنوعًا من البوص ونفخ فيه. خلال لحظات بدأت قطعة القماش تتحرك، ومع ازدياد حدة صوت المزمار، أخرج ثعبانان لونهما أخضر وذهبي رأسيهما المدببين، وارتفعا ببطء وهما يتمايلان مع الموسيقى، كما يتمايل النبات في الماء. إلا أن الأطفال شعروا بالخوف من رؤوسها المرقطة، وألسنتها سريعة الحركة. لكنهم شعروا بالسعادة بصورة أكبر عندما جعل الساحر شجرة برتقال صغيرة تنمو من بين الرمال، وتطرح زهورًا بيضاءً جميلة، بالإضافة لمجموعات من الثمار الحقيقية. وعندما أخذ مروحة ابنة ماركيز لا توري الصغيرة وحولها إلى طائر أزرق، أخذ يحلق في أرجاء السرادق مغردًا، بلغت سعادتهم ودهشتهم ذروتها. وكانت الرقصة الرصينة التي أداها فتيان كنيسة سيدة بيلار فاتنة للغاية. فلم يسبق للأميرة أن شاهدت هذه الطقوس الرائعة التي تقام في شهر مايو من كل عام أمام المذبح العالي للعذراء وعلى شرفها. وفي الحقيقة فلم يدخل أي من أفراد الأسرة

المالكة الإسبانية الكاتدرائية الكبرى في سرقسطة، منذ محاولة كاهن مجنون، افترض الكثير من الناس أنه يعمل لصالح اليزابيث ملكة انجلترا، تسميم أمير أستورياس عن طريق الخبز المقدس. لذا فقد سمعت فقط عن رقصة السيدة العذراء، كما كان يطلق عليها، والتي كانت بالفعل رائعة للغاية. ارتدى الفتية ثيابًا رسمية، قديمة الطراز من المخمل الأبيض، بينما كانت حواف قبعاتهم الغريبة، ذات الثلاث أركان مزينة بالفضة، ويعلوها مجموعات كبيرة من ريش النعام. وقد أبرزت وجوههم الداكنة البشرة، وشعرهم الأسود الطويل، بياض ملابسهم الناصع وهم يتحركون تحت ضوء الشمس. انبهر الجميع بوقارهم خلال الرقصة المعقدة، وبجمال حركاتهم البطيئة، وانحنائهم بجلال. وعندما انتهوا من تقديم عرضهم، وخلعوا قبعاتهم الكبيرة المزينة بالريش أمام الأميرة، عبرت عن شكرها لاحترامهم هذا بكياسة بالغة، وقطعت عهدًا بأن ترسل شمعة ضخمة لمذبح كنيسة سيدة بيلار مقابل البهجة التي منحتها إياها.

بعد ذلك، تقدمت مجموعة من المصريين الذين امتازت ملامحهم بالوسامة - كما كان يطلق على الغجر في تلك الأيام - ودخلوا الساحة ثم جلسوا في حلقة متربعين، وشرعوا في العزف بخفة على آلات القانون، وأجسادهم تتمايل مع الموسيقى، وهم يدندنون لحنًا حالمًا بصوت منخفض. وعندما لمحوا دون بيدرو، تجهمت ملامحهم، وبدا الرعب على بعضهم؛ فقد حكم على اثنين من جماعتهم بالإعدام منذ بضعة أسابيع مضت، بتهمة ممارسة السحر في السوق بإشبيلية. لكن

الأميرة الجميلة سحرتهم، وهي تجلس مستندة للخلف، وتسترق النظر من أعلى حافة مروحتها بعينيها الزرقاوين الكبيرتين، وأحسوا أنه لا يمكن لشخص بمثل هذا الجمال أن يؤذي أحدًا. لذا استمروا في العزف برقة، وهم يلمسون أوتار آلات القانون بأظافرهم الطويلة المدببة، وأخذت رؤوسهم تمايل، وكأنهم على وشك النوم. وفجأة صاحوا بحدة لدرجة أن الأطفال فوجئوا، وقبض دون بيدرو بيده على طرف مقبض خنجره المصنوع من العقيق. فقفزوا واقفين، وداروا بجنون حول الساحة وهم يضربون دفوفهم، ويغنون أغنية صاخبة من أغاني الحب بلغتهم الغريبة ذات الحروف الحلقية. وبعد إشارة أخرى ألقى الجميع أنفسهم أرضًا مرة ثانية، وجلسوا في سكون، بحيث كان صوت آلة القانون الهادئ وحده هو الذي يكسر الصمت. بعد أن كرروا الأمر بضع مرات، اختفوا للحظة قبل أن يعودوا وهم يسحبون دبًّا بنيًّا، مربوطًا بسلسلة، ويحملون على أكتافهم بعض قرود المكاك. وقف الدب على رأسه بمنتهى الجدية، بينما قدمت القرود العجوزة العديد من الخدع المسلية مع اثنين من صبية الغجر اللذيْن بدا عليهما أنهما مدربا القرود. تقاتلوا بالسيوف الصغيرة، وأطلقوا النيران، وقاموا بتدريبات الجنود المعتادة، وكأنهم من حرس الملك. وحاز الغجر على الإعجاب بدرجة كبيرة.

لكن أكثر فقرة مضحكة من بين كل العروض في ذلك الصباح، كانت بلا شك هي رقصة القزم الصغير. عندما دخل الساحة متعثرًا، وهو يتبختر على ساقيه المقوستين، ويهز رأسه الضخمة يمينًا ويسارًا،

ضج الأطفال بالضحك، وضحكت الأميرة نفسها بشدة، لدرجة أن الوصيفة الأولى اضطرت لأن تذكرها أنه بالرغم من وجود العديد من الحالات السابقة في إسبانيا التي بكت فيها ابنه الملك أمام من هم في مثل منزلتها، إلا أنه لم يسبق، وأن ضجت أميرة من الأسرة المالكة بالضحك لهذا الحد أمام من هم أقل منها منزلة.

لكن القزم كان لا يقاوم، وحتى في البلاط الإسباني الشهير بولعه بكل ما هو غريب، لم يسبق وأن شوهد وحش صغير رائع لهذا الحد من قبل. وكان هذا هو أول ظهور له. فقد تم اكتشافه في اليوم السابق وهو يركض في الغابة، عندما شاهده اثنان من النبلاء اللذان ذهبا للصيد في ركن بعيد من الغابة التي تحيط بالبلدة، ثم اصطحباه معهما للقصر على سبيل المفاجأة للأميرة. أحس والده صانع الفحم الفقير بالراحة عندما تخلص من الطفل القبيح عديم الفائدة. وربما كان أكثر ما يثير الضحك فيه هو عدم إدراكه على الإطلاق مدى بشاعة منظره. فقد بدا في غاية السعادة وبروح معنوية مرتفعة. وعندما ضحك الأطفال، شاركهم الضحك بمرح، وفي نهاية كل رقصة كان ينحني لهم بطريقة مضحكة، وهو يبتسم، ويهز رأسه، وكأنه واحد منهم، لا كائن مشوه، شكلته الطبيعة على سبيل الدعابة، كي يسخر منه الآخرون. أما الأميرة، فقد انبهر بها تمامًا. لم يستطع أن يبعد عينيه عنها، وبدا وكأنه يرقص لها وحدها. وعند نهاية العرض، تذكرت الأميرة كيف شاهدت سيدات البلاط وهن يلقين بالزهور لكافاريللي، المطرب الإيطالي الشهير الذي أرسله البابا من كنيسته

إلى مدريد كي يعالج الملك من الاكتئاب بغنائه العذب، فتناولت الأميرة من شعرها الوردة البيضاء الجميلة وألقتها له عبر الساحة، وهي تبتسم برقة على سبيل الدعابة، وأيضًا كي تغيظ الوصيفة الأولى. تعامل مع الأمر بجدية تامة، وهو يضم الوردة لشفتيه الخشنتين، ويضع يده على قلبه، بينما هو يركع أمامها على ركبته، ويبتسم ابتسامة عريضة، وعيناه الصغيرتان تلتمعان بالسرور.

لم تتمكن الأميرة من الحفاظ على طابع الجدية، وظلت تضحك طويلًا، حتى بعد أن غادر القزم الساحة، وطلبت من عمها أن تعاد فقرة الرقص مرة أخرى على الفور. إلا أن الوصيفة الأولى احتجت بأن الشمس شديدة الحرارة، وقررت أنه من الأفضل أن تعود سمو الأميرة إلى القصر دون تأخير، حيث تم إعداد وليمة رائعة على شرفها، بما في ذلك كعكة لعيد الميلاد كتبت عليها الأحرف الأولى من اسمها بالسكر الملون، وزُينت قِمتها بعلم فضي صغير. لذا قامت الأميرة بوقار، بعد أن أصدرت أوامرها بأن يكرر لها القزم الصغير رقصته مرة أخرى بعد ساعة القيلولة، وقدمت الشكر لكونت تيرا نويفا الصغير على حسن استقباله، ثم عادت لحجرتها، وتبعها الأطفال بنفس ترتيب دخولهم.

وعندما سمع القزم الصغير أنه سيرقص أمام الأميرة مرة ثانية بناء على أوامرها الصريحة، شعر بالزهو لدرجة أنه اندفع راكضًا للحديقة، وهو يقبل الوردة البيضاء بنشوة وسعادة، ومعبرًا عن فرحه بحركات فظّة وخرقاء.

شعرت الزهور بالغضب لأنه جرؤ على اقتحام مسكنها الجميل، وعندما رأوه وهو يركض جيئة وذهابًا بين الممرات، ويلوح بذراعيه فوق رأسه بطريقة مضحكة، لم يتمكنوا من كبح جماح مشاعرهم.

صاحت زهور التوليب قائلة: «أنه قبيح للغاية، ولا يجب السماح له باللعب في نفس المكان الذي نتواجد فيه نحن».

قالت زهور الزنبق القرمزية الضخمة وهي تشتاط غضباً: «يجب على أحدهم أن يسقيه عصير الخشخاش، كي يغرق في النوم لألف سنة».

صرخت الصبارات قائلة: «ياله من بشع! فأطرافه مقوسة، وقامته قصيرة، وحجم رأسه لا يتناسب على الإطلاق مع طول ساقيه. في الحقيقة فهو يجعلني أشعر بالوخز في كل كياني، ولو اقترب مني سأوخزه بأشواكي».

وقالت شجرة الورد الأبيض: «وفوق هذا معه واحدة من أجمل زهوري. لقد أعطيتها للأميرة بنفسي هذا الصباح، على سبيل الهدية بمناسبة عيد ميلادها، وقد سرقها هو منها». ثم صاحت بأعلى صوتها: «لص! لص! لص!».

حتى زهور الجارونيا الحمراء، التي لم تكن في العادة تتصف بالكبر، والتي كان من المعروف أن لها العديد من الأقارب الفقراء، التوت باشمئزاز عندما رأته. وعندما قالت زهور البنفسج بخنوع أنه بالرغم من كونه قبيح الشكل، إلا أنه ليس بيده من الأمر شيء، ردت

الجارونيا قائلة إن هذا هو أكبر عيوبه، فلا يوجد أي سبب يدعو المرء للإعجاب بشخص ما لأنه لا علاج لدائه. وفي الواقع فقد شعرت بعض زهور البنفسج أن القزم الصغير يكاد يتباهى بقبحه، وأن سلوكه سيكون أكثر قبولًا لو بدا عليه الحزن أو على الأقل الاستغراق في التفكير، بدلًا من التقافز بمرح، والقيام بتلك الحركات الغريبة والسخيفة.

أما الساعة الشمسية العجوز التي كانت شخصًا مميزًا للغاية، إذ أخبرت الإمبراطور تشارلز الخامس نفسه بالوقت يومًا ما، فقد فوجئت بشكل القزم الصغير، لدرجة أنها كادت تنسى أن تسجل دقيقتين كاملتين بظل إصبعها الطويل. ولم تستطع منع نفسها من الحديث مع الطاووس الناصع البياض، الذي كان يتشمس على الدرابزين قائلة: «أن الكل يعلم أن أبناء الملوك ملوك أيضًا، وأن أطفال صانعي الفحم ما هم إلا صانعو فحم ومن السخيف التظاهر بغير ذلك». وافقها الطاووس على قولها تمامًا وصرخ قائلًا: «بالتأكيد، بالتأكيد»، بصوت حاد مرتفع، لدرجة أن أسماك الزينة التي تعيش في مياه النافورة الباردة أخرجت رأسها من الماء، وسألت تماثيل ترايتون(5) الحجرية الضخمة عما يدور.

(5) ترايتون هو ابن رب البحر والماء بوسيدون. وتصوره الميثولوجيا الإغريقية على شكل عريس البحر حيث يتكون من جسم مركب: جسده العلوي يشبه الإنسان بينما جسده السفلي عبارة عن ذيل حوت أو وحش بحري.

لكن الطيور كانت تحبه، فقد شاهدوه كثيرًا في الغابة، وهو يرقص كأنه جني، مطاردًا أوراق الشجر المتطايرة، وأيضًا وهو راقد في تجويف واحدة من أشجار البلوط القديمة، يتشارك الجوز مع السناجب. لم يكن لديهم أي مانع من كونه قبيح الشكل؛ فحتى العندليب الذي يغرد بعذوبة بالغة، وسط بساتين البرتقال ليلًا لدرجة أن القمر كان يقترب أحيانًا كي ينصت له، لم يكن ذا مظهر جذاب. وبالإضافة لذلك فقد كان كريمًا معهم خلال الشتاء القارس البرودة، عندما خلت أفرع الأشجار من الثمر، وصارت الأرض قاسية كالحديد، واقتربت الذئاب من أبواب المدينة نفسها بحثًا عن الطعام... فلم ينساهم أبدًا، ودائمًا ما كان يطعمهم فتات خبزه الأسود، ويتقاسم معهم إفطاره البسيط.

لذا حلقوا حوله في طيرانهم، ولمسوا وجنته بأجنحتهم، كلما مروا بجواره وهم يثرثرون فيما بينهم. وشعر القزم الصغير بسعادة بالغة، فأظهر لهم الوردة البيضاء، وأخبرهم أن الأميرة بنفسها أعطته إياها؛ لأنها تحبه.

لم يفهموا حرفًا واحدًا من حديثه، لكن ذلك لم يشكل أي فارق، فقد أمالوا رؤوسهم جانبًا، وهم يتصنعون الحكمة، وهذا يكاد يساوي الفهم الفعلي للأمور، وفي نفس الوقت فهو أسهل كثيرًا.

كما أحبته السحالي أيضًا بدرجة كبيرة. وعندما تعب من الركض في أرجاء المكان، واستلقى على العشب كي يرتاح قليلًا، لعبوا وركضوا

فوقه، وحاولوا تسليته بأقصى جهدهم. صاحوا قائلين: «ليس بوسع الجميع أن يكونوا في مثل جمال السحالي، ولا يمكننا أن نتوقع هذا. وبالرغم من أنه يبدو من الغريب أن نقول ذلك، فهو في الواقع ليس قبيحًا لهذا الحد. بشرط أن يغمض المرء عينيه بالطبع، ولا ينظر إليه». كانت السحالي تتمتع بطبيعة فلسفية للغاية، وكثيرًا ما كانت تقضي الساعات وهي تفكر معًا عندما لا يكون هناك أي شيء آخر تفعله، أو عندما يكون الجو ماطرًا بدرجة لا تسمح لهم بالخروج.

لكن الزهور انزعجت للغاية من سلوكهم ومن سلوك الطيور، وقالت: «هذا دليل على التأثير السيئ لكل هذه الحركة والطيران. فالأشخاص حسنو التربية يبقون دومًا في مكان واحد، كما نفعل نحن. فلم يسبق أن شَاهَدَنا أحدٌ ونحن نتقافز جيئة وذهابًا عبر الممرات، أو ونحن نركض بجنون على العشب مطاردين حشرات اليعسوب. عندما نريد تغيير الجو، نرسل في طلب البستاني، الذي يأتي ليحملنا إلى حوض آخر. هذا هو الوقار كما يجب أن يكون. لكن الطيور والسحالي ليست لديها القدرة على البقاء ساكنة، وفي الواقع فإن الطيور لا يوجد لديها عنوان ثابت. فهم مجرد مشردين مثل الغجر، ويجب معاملتهم بنفس الطريقة». لذا رفعت الزهور أنوفها للأعلى، وبدا عليها الكِبر الشديد، وغمرتهم السعادة عندما رأوا القزم الصغير وهو ينهض قائمًا من على العشب، متجهًا ناحية شرفة القصر.

قالوا: «بالقطع يجب أن يتم حبسه في الداخل لما بقي له من العمر. انظروا لظهره الأحدب ولساقيه المقوستين». وشرعوا في الضحك.

لكن القزم الصغير لم يكن يدري أي شيء عن كل ذلك. فقد كان يحب الطيور والسحالي للغاية، ويعتقد أن الزهور هي أروع شيء في العالم، باستثناء الأميرة بالطبع. حيث إنها منحته الوردة البيضاء الجميلة، وكانت تحبه، وقد شكل ذلك فارقًا كبيرًا بالنسبة له. كم تمنى لو ذهب معها. كانت ستتشبك يدها اليمنى في ذراعه وتبتسم له، ولن يبتعد هو عنها أبدًا. سيجعلها رفيقته في اللعب، ويعلّمها شتى أنواع الخدع المسلية. فبالرغم من أنه لم يدخل قصرًا من قبل، إلا أنه كان يعرف العديد من الأشياء الرائعة. فقد كان يعرف كيف يصنع أقفاصًا صغيرة من القصب، كي تطلق الجنادب ألحانها بداخلها. ويعرف كيف يصنع نايًا من أعواد البوص الطويلة، يحب بان(6) نفسه أن يسمع عزفه. ويعرف كذلك أصوات كل الطيور، وبمقدوره أن ينادي طيور الزرزور من قمم الأشجار، أو طيور البلشون من البحيرات. كما كان يعرف آثار كل الحيوانات، ويمكنه أن يقتفي أرنبًا من آثار أقدامه الرقيقة، أو خنزيرًا بريًّا من أثره في أوراق الشجر التي دهسها. ويعرف أيضًا كل الرقصات البرية: الرقصة الجامحة بالملابس الحمراء مع الخريف، والرقصة الرقيقة بالنعال الزرقاء فوق الذرة، والرقصة بأكاليل الثلج البيضاء في الشتاء، ورقصة الزهور بين البساتين في الربيع. وكان يعرف أين يبني حمام الغابة أعشاشه. وفي أحد المرات عندما صاد أحد الصيادين الأم والأب قام بتنشئة الصغار بنفسه، بعد أن بنى لهم برج حمام صغير في شق بشجرة دردار. كانوا أليفين للغاية، واعتادوا على تناول الطعام من كفيه

كل صباح. ستحبهم الأميرة، كما ستحب الأرانب التي تركض وسط نباتات السرخس، وطيور أبي زريق بريشها القوي ومناقيرها السوداء، والقنافذ التي تلتف على نفسها على شكل كرات من الشوك، والسلاحف الضخمة الحكيمة التي تزحف ببطء، وهي تهز رؤوسها، وتأكل أوراق الشجر الصغيرة. أجل، قطعًا، يجب أن تأتي معه إلى الغابة كي تلعب معه. سيتنازل لها عن فراشه الصغير، وسيبقى مراقبًا بجوار النافذة حتى الفجر، كي يتأكد أن الماشية البرية بقرونها الحادة لن تؤذيها، أو أن الذئاب النحيلة لن تقترب كثيرًا من الكوخ. وعند الفجر سيدق على مصاريع النافذة الخشبية، كي يوقظها. وسيخرجان معًا ويرقصان طوال اليوم. لم تكن الغابة مكانًا موحشًا. ففي بعض الأحيان كان الأسقف يمر ممتطيًا بغله الأبيض، وهو يقرأ من كتاب ملون. وفي أحيان أخرى كان يمر بعض الصيادين بقبعاتهم المخملية الخضراء، وستراتهم التي بلا أكمام والمصنوعة من جلد الغزال، وهم يحملون على معاصمهم الصقور التي غطوا أعينها. وفي موسم العنب كان يأتي عاصرو العنب، بأيديهم وأقدامهم التي اصطبغت باللون البنفسجي، وهم يلفون أفرع أوراق الشجر اللامعة حول أجسادهم، ويحملون القراب التي يقطر منها النبيذ. وكان صناع الفحم يجلسون حول كوانينهم الضخمة ليلًا، وهم يراقبون الأخشاب الجافة وهي تحترق ببطء بين ألسنة النار، ويشوون الكستناء على الرماد، كما كان اللصوص يخرجون من كهوفهم ليتسامروا معهم. وفي مرة من المرات شاهد موكبًا رائعًا يقطع الطريق المترب الطويل المؤدي إلى

طليطلة. سار الرهبان في المقدمة منشدين بعذوبة وهم يحملون الأعلام الزاهية والصلبان الذهبية، تلاهم الجنود بدروعهم الفضية، حاملين البنادق والحراب. وفي المنتصف سار ثلاثة رجال حفاة، يرتدون ملابس صفراء غريبة، وقد رسموا على أجسادهم صورًا رائعة، ويحملون شموعًا مشتعلة بين أيديهم. بالتأكيد يمكنها مشاهدة الكثير من الأشياء في الغابة، وعندما تشعر بالتعب يمكنه أن يجد لها فراشًا ناعمًا من الطحالب، أو يمكن أن يحملها بين ذراعيه، فقد كان قويًا للغاية، بالرغم من أنه كان يعلم أنه ليس طويل القامة. سيصنع لها عقدًا من ثمار نبات الفاشرا الحمراء اللون، سيكون بنفس جمال تلك الثمار البيضاء التي تزين ثوبها. وعندما تمل منها، بمقدورها أن تلقيها بعيدًا وسيجد لها غيرها. سيجلب لها جوز شجر البلوط، وشقائق النعمان التي أغرقتها قطرات الندى، وسيجلب أيضًا الحباحب الصغيرة؛ كي تضيء مثل النجوم في شعرها الذهبي الفاتح.

(6) بان حسب الميثولوجيا الإغريقية هو إله المراعي والصيد البري والأحراش.

لكن أين هي؟ سأل الوردة البيضاء فلم تجبه. بدا القصر وكأنه مستغرق في النوم، وحتى عندما كانت مصاريع النوافذ مفتوحة، أُسدلت الستائر الثقيلة لمنع وهج الشمس القوي من الدخول. تجول في أرجاء المكان باحثًا عن مدخل يمكنه الولوج منه حتى لمح أخيرًا بابًا صغيرًا مفتوحًا. دلف للداخل فوجد نفسه في قاعة رائعة، تفوق الغابة روعة. كان هناك الكثير من الذهب في كل مكان، وحتى الأرض

كانت مؤلفة من أحجار ملونة ضخمة متراكبة معًا بشكل هندسي. لكن الأميرة الصغيرة لم تكن هناك. كل ما وجده هو بعض التماثيل البيضاء الرائعة، التي نظرت إليه بعيون حزينة خاوية، وشفاه تعلوها ابتسامات غريبة من فوق قواعدها المرتفعة المصنوعة من حجر اليشب. في طرف القاعة كانت هناك ستارة من المخمل الأسود مزينة ببذخ، وقد تناثرت عليها الشموس والنجوم التي يحبها الملك، مطرزة على خلفية من لونه المفضل. ربما كانت تختبئ وراءها؟ بمقدوره أن يحاول على أي حال.

لذا تسلل عبر القاعة في هدوء وجذب الستارة جانبًا. لم يكن هناك سوى حجرة أخرى، رأى أنها أجمل من تلك التي خرج منها للتو. تزينت الجدران بالمعلقات النسجية خضراء اللون، المطرزة يدويًا، التي ارتسم عليها العديد من الأشخاص، والتي تصور عملية الصيد. صنعها بعض الفنانين البلجيكيين، الذين قضوا أكثر من سبع سنوات حتى انتهوا من عملها. كانت في السابق حجرة جان المجنون، كما كانوا يسمونه، ذلك الملك المجنون المولع بالصيد لدرجة أنه كثيرًا ما كانت تنتابه الهلاوس، ويحاول امتطاء صهوة الجياد العملاقة الواقفة على قوائمها الخلفية، أو أن يسحب الغزال الذي تتقافز فوقه كلاب الصيد الضخمة، وهو يطلق نفير الصيد، ويطعن بخنجره الغزال الشاحب المعلق. صارت الغرفة تستخدم الآن لاجتماعات الملك مع مستشاريه، وعلى الطاولة التي تتوسط الغرفة كانت هناك حقائب الوزراء الحمراء اللون، وقد ختمت بختم إسبانيا الذي تزينه

زهور التوليب الذهبية، وزُينت الحقائب أيضًا بشعار أسرة هابسبورج الملكية.

نظر القزم الصغير حوله بتعجبٍ، وهو يكاد يخشى دخول الغرفة. بدا له أولئك الرجال الغرباء الصامتون الذين اعتلوا ظهور الخيل، راكضين عبر الغابات في سرعة دون أن يصدر عنهم أي صوت، وكأنهم يشبهون تلك الأشباح الرهيبة التي طالما سمع عنها في حكايات صانعي الفحم - كانوا يصيدون ليلًا فقط، ولو صادفوا في طريقهم رجلًا، كانوا يحولونه لغزال، ثم يقومون بمطاردته. لكنه فكر في الأميرة الجميلة واستجمع شجاعته. أراد أن يعثر عليها وحدها، وأن يخبرها أنه يحبها. ربما كانت في الغرفة التالية.

ركض عبر السجاد الموريسكي الناعم وفتح الباب. لا، لم تكن هناك أيضًا. كانت الغرفة خالية تقريبًا.

كانت حجرة العرش المستخدمة لاستقبال السفراء الأجانب عندما يوافق الملك على مقابلتهم بنفسه، بالرغم من أنه لم يعد يفعل ذلك بكثرة مؤخرًا. كانت هي الغرفة ذاتها التي حضر بها المبعوثون من انجلترا منذ سنوات طويلة مضت للاتفاق على ترتيبات زواج ملكتهم، التي كانت حينها واحدة من ملوك أوروبا الكاثوليك، من الابن الأكبر للإمبراطور. زينت الجدران معلقات من الجلد القرطبي الناعم، وتدلت من السقف، الذي كان باللونين الأبيض والأسود، ثريا مذهبة ضخمة لها أذرع تكفي ثلاثمائة شمعة. وأسفل مظلة ضخمة

من القماش المذهب المزين بصور الأسود وأبراج قشتالة المطرزة باللؤلؤ، انتصب العرش نفسه، وقد فُرش عليه غطاء نعش باذخ من المخمل الأسود المرصع بزهور التوليب الفضية، وزُينت حوافه بالفضة واللآلئ. وعلى الدرجة الثانية من السلم المؤدي للعرش وُضع كرسي الأميرة الذي تجلس عليه في وضع الركوع، وعليه وسادة من النسيج الفضي. وأسفل ذلك خارج حدود المظلة، وُضع كرسي مبعوث البابا، الذي كان الوحيد صاحب حق الجلوس في حضرة الملك خلال أي مناسبة عامة. وكانت قبعة الكاردينال الخاصة به بشرابتها القرمزية المتشابكة موضوعة على كرسي بنفسجي صغير أمام كرسيه. وعلى الجدار المواجه للعرش كانت هناك لوحة بالحجم الطبيعي لتشارلز الخامس بملابس الصيد وإلى جواره كلبه الضخم. بينما احتلت لوحة لفيليب الثاني وهو يتقبل فروض الولاء من سكان منطقة الأراضي الواطئة، منتصف الجدار الآخر. وبين النوافذ انتصبت خزانة من الأبنوس الأسود المطعم بالعاج، حُفرت عليه شخصيات من لوحة «رقصة الموت» لهولباين - وقال البعض أن الفنان الشهير قد حفرها بيده.

لكن القزم الصغير لم يهتم بأي شيء من كل تلك الأشياء الفخمة. ولم يكن ليتخلى عن وردته مقابل كل اللآلئ التي تزين المظلة، ولا عن بتلة واحدة من بتلات وردته البيضاء مقابل العرش ذاته. كان يرغب في رؤية الأميرة قبل أن تتوجه إلى السرادق؛ كي يطلب منها أن تذهب برفقته بعد أن ينتهي من أداء رقصته. فهنا في القصر

كان الهواء مكتومًا وثقيلًا، بينما الريح تهب بحرية في الغابة، وتحرك الشمس بأيديها الذهبية أوراق الشجر المرتعشة. كانت هناك في الغابة أيضًا زهور قد لا تكون بنفس روعة الزهور في الحديقة، لكنها أجمل رائحة؛ زهور الهايسنت التي تغمر الوديان الباردة، والهضاب المكسوة بالعشب باللون البنفسجي في أول الربيع، وزهرة الربيع الصفراء التي تنمو في تجمعات صغيرة حول جذور أشجار البلوط الخشنة، وزهور بقلة الخطاطيف الزاهية، وزهور الحواشي الزرقاء اللون، وزهور السوسن بلونها البنفسجي والذهبي. كما كانت تنمو مجموعات من الزهور الأسطوانية رمادية اللون على أشجار البندق، وتتدلى زهور قفاز الثعلب تحت ثقل ورودها المبرقشة التي يملأها النحل. وكان لشجر الكستناء أبراج من النجوم البيضاء، بينما الزعرور البري له أقمار شاحبة جميلة. أجل، بالتأكيد سترافقه، لو تمكن فقط من العثور عليها! ستذهب معه للغابة الجميلة وسيرقص لتسليتها طوال اليوم. أضاءت عينيه ابتسامة عندما طرأت تلك الفكرة على باله، وهو يدخل الغرفة الأخرى.

كانت هذه هي أكثر الغرف إشراقًا وأجملها. تغطت الجدران بقماش البروكار الوردي المنسوج في لوكا، والذي تزينه الطيور والزهور الفضية الصغيرة. كانت قطع الأثاث ضخمة من الفضة، وتزينها أكاليل الزهور، ورسوم لكيوبيد على أرجوحة. وأمام المدفأتين الكبيرتين كانت هناك ستائر ضخمة مطرزة بالببغاوات والطواويس. أما الأرض التي كانت من العقيق اليماني الأخضر، فقد بدت وكأنها تمتد بعيدًا حتى الأفق. ولم يكن وحده، فهناك في ظل المدخل في

الطرف البعيد من الغرفة شاهد هيئة شخص ما ضئيل الحجم يراقبه. انتفض قلبه وأفلتت من بين شفتيه صيحة فرح وهو يتحرك ليقف في ضوء الشمس. وعندما فعل ذلك، تحركت الهيئة الأخرى أيضا فرآها بوضوح.

الأميرة! بل كانت هيئة وحش، أبشع وحش شاهده على الإطلاق. لم تكن هيئته طبيعية مثل باقي الأشخاص. كان أحدب الظهر، وأطرافه مقوسة، وله رأس كبير يهتز يمينًا ويسارًا، وشعر أسود كثيف. تجهم القزم الصغير فتجهم الوحش أيضًا. ضحك، فضحك الآخر معه، ووضع يديه على جانبيه مثله تمامًا. انحنى ناحيته باستهزاء، فبادله الانحناء. تقدم منه، فاقترب للقائه مقلدًا كل خطوة يخطوها، وتوقف كلما توقف هو. صاح ضاحكًا، وركض للأمام ومد يده، وعندما لامست يد الوحش يده كانت باردة كالثلج. شعر بالخوف فحرك يده، وتبعت يد الوحش حركته بسرعة. حاول أن يتحرك للأمام، لكن شيئًا ما ناعمًا وصلبًا منعه من ذلك. صار وجه الوحش قريبًا للغاية من وجهه، وبدا عليه الرعب. أبعد شعره عن عينيه، فقلده. ضربه، فرد له الضربة. شعر نحوه بالكراهية، فرسم الوحش على وجهه تعبيرات بشعة. ابتعد هو، فتراجع الآخر.

ما هذا؟ فكر للحظة وتجول بعينيه في باقي أرجاء الغرفة. كان الأمر غريبًا، لكن بدا أن كل شيء له انعكاس في هذا الجدار الخفي من الماء الشفاف. أجل، كانت كل اللوحات مكررة، وكل الأرائك. حتى الفون النائم في الكوة بجوار المدخل، كان له شقيق توأم نائم هو

الآخر، بينما مد تمثال فينوس الفضي الواقف وسط ضوء الشمس ذراعيه ناحية تمثال فينوس آخر يضاهيه جمالًا.

هل كان هذا هو الصدى؟ فقد ناداه مرة في الغابة، فرد عليه مكررًا كلامه كلمة كلمة. هل يمكنه أن يسخر من العين كما يسخر من الأذن؟ هل بمقدوره صنع عالم خيالي يضاهي العالم الحقيقي؟ هل يمكن أن يكون لظل الأشياء لون وحياة وحركة؟ هل يمكن أن...؟

فزع مرة واحدة، وأبعد الوردة البيضاء عن صدره، وهو ينهض واقفًا ثم استدار وقبّلها. كان لدى الوحش وردة هو الآخر، تشبه كل بتلاتها وردته هو. قبّلها بطريقة مشابهة، وضمها لصدره بحركات بشعة.

عندما فهم أخيرًا حقيقة الأمر، ندت عنه صيحة يأس، وارتمى على الأرض وهو يجهش بالبكاء. إذن فقد كان هو المشوه ذو الظهر الأحدب، القبيح ذو المنظر البشع. كان هو نفسه الوحش، وكان الأطفال جميعًا يضحكون لمنظره. والأميرة الصغيرة -التي اعتقد أنها تحبه- لا بد أنها هي الأخرى كانت تسخر من قبحه وتستهزئ بأطرافه المقوسة. لماذا لم يدعوه في الغابة، حيث لا توجد مرايا تظهر له مدى بشاعته؟ لماذا لم يقتله والده بدلًا من بيعه هكذا حتى يشعر بكل هذا الخزي؟ انسالت الدموع الساخنة على وجنتيه، ومزق الوردة البيضاء إربًا. فعل الوحش الممدد أرضًا الشيء ذاته، وبعثر بتلاتها في الهواء. تمرغ الوحش في الأرض، وعندما نظر هو إليه، راقبه الوحش بوجه ارتسمت على ملامحه الألم. زحف بعيدًا حتى لا يراه، وغطى عينيه

بكفيه. زحف ككائن جريح نحو الظلال، وظل ممددًا هناك وهو يئن.

في تلك اللحظة دخلت الأميرة بنفسها مع رفاقها عبر النافذة المفتوحة، وعندما رأوا القزم الصغير القبيح ممددًا وهو يضرب الأرض بقبضتيه بحركات مبالغ فيها، انفجروا ضاحكين، وتحلقوا حوله ليراقبوه.

قالت الأميرة: «لقد كان رقصه مضحكًا، لكن تمثيله مضحك أكثر. في الواقع فهو يكاد يكون مسليًا مثل العرائس تمامًا، إلا أن أداءه بالطبع ليس طبيعيًا مثلهم». ثم حركت مروحتها الضخمة وصفقت له.

لكن القزم الصغير لم يرفع عينيه أبدًا، وازداد صوت نحيبه خفوتًا، حتى شهق فجأة شهقة غريبة، وقبض على جنبه بيده. سقط بعدها للخلف مرة أخرى وسكن تمامًا.

قالت الأميرة بعد لحظة من الصمت: «هذا رائع. لكن عليك أن ترقص من أجلي الآن».

صاح الأطفال قائلين: «أجل، يجب أن تنهض وترقص. فأنت مسل مثل قرود المكاك، ومضحك بدرجة أكبر منهم». لكن القزم الصغير لم يجبهم بكلمة.

ضربت الأميرة الأرض بقدمها، ونادت عمها الذي كان يسير على الشرفة بمرافقة حاجب الملك، وهو يقرأ بعض الرسائل التي وصلت

للتو من المكسيك، حيث تم مؤخرًا تأسيس مجمع العقيدة والإيمان. صاحت قائلة: «قزمي الصغير المضحك حردان. عليك أن توقظه وتأمره أن يرقص من أجلي».

تبادلا الابتسام ودخلا، ثم انحنى دون بيدرو، وصفع وجنة القزم بقفازه المطرز. قال: «عليك أن ترقص. أيها السيد الصغير يجب أن ترقص، فأميرة إسبانيا وجزر الهند تريد أن تتسلى».

لكن القزم لم يتحرك قيد أنملة.

قال دون بيدرو بنبرة يغلب عليها الضجر: «يجب أن نرسل لطلب أحدهم حتى يقوم بجلده»، ثم خرج إلى الشرفة مرة أخرى. لكن الجدية بدت على ملامح حاجب الملك، وهو يركع بجوار القزم الصغير واضعًا يده على قلبه. بعد بضع لحظات هز كتفيه ونهض. انحنى للأميرة وقال: «يا أميرتي الجميلة، لن يرقص قزمك الصغير المضحك مرة ثانية أبدًا. الأمر مؤسف للغاية، فهو قبيح جدًّا، لدرجة أنه كان يمكنه أن يجعل الملك يبتسم».

سألته الأميرة ضاحكة: «لكن لماذا لن يرقص مرة أخرى؟».

أجابها حاجب الملك قائلًا: «لأن قلبه انكسر».

تجهمت الأميرة، ولوت شفتيها الرقيقتين اللتين بلون الورد بازدراء. صاحت قائلة: «في المستقبل، عليك أن تتأكد من أن أولئك الذين يأتون للعب معي لا قلوب لهم». ثم ركضت خارجة إلى الحديقة.

صياد السمك وروحه

في كل مساء كان الصياد الشاب يخرج للبحر ويلقي شباكه في المياه.

وعندما كانت الرياح تهب من ناحية البر، لم يكن يصطاد شيئًا، أو يصطاد أقل القليل في أحسن الأحوال، فقد كانت رياح باردة، ذات أجنحة سوداء، تثب الأمواج الهائجة لملاقاتها. أما عندما كانت الرياح تهب من البحر ناحية الشاطئ، فقد كانت الأسماك تصعد من الأعماق، وتسبح لتدخل من بين ثقوب شباكه، فيأخذها معه للسوق حيث يبيعها.

في كل مساء كان يخرج للبحر، وفي ذات مساء كانت الشبكة ثقيلة للغاية، لدرجة أنه لم يتمكن من رفعها للقارب. فضحك محدثًا نفسه: «لقد اصطدت بالتأكيد كل الأسماك التي تسبح في البحر، أو قبضت على وحش قبيح سيتعجب له البشر، أو ربما شيء آخر مرعب قد ترغب فيه جلالة الملكة». واستجمع كل قواه وجذب الحبال الخشنة حتى برزت العروق الطويلة على ذراعيه، مثل خطوط من المينا الزرقاء تزين مزهرية من النحاس. جذب الحبال الرفيعة حتى اقتربت شيئًا فشيئًا الحلقة المكونة من قطع الفلين المسطحة، وارتفعت الشباك أخيرًا فوق سطح الماء.

لكن لم يكن بها أي سمك على الإطلاق، ولا أي وحش، أو أي شيء مرعب؛ بل فقط حورية بحر صغيرة مستغرقة في النوم!

كان شعرها كنسيجٍ من الذهب المبلل، وبدت كل شعرة على حدة، وكأنها خيط من الذهب الصافي في كأس بلوري. وكان جسدها في بياض العاج، بينما ذيلها من الفضة واللؤلؤ. من الفضة واللؤلؤ كان ذيلها، وقد التفت حوله الأعشاب البحرية الخضراء. مثل أصداف البحر كانت أذناها، وكالمرجان شفتاها. على صدرها تكسرت الأمواج الباردة، وعلى جفونها التمع الملح.

جميلة كانت، لدرجة أن الصياد الشاب تعجب عندما شاهدها، ومد يده ليجذب الشباك بالقرب منه، ثم مال على جانب القارب، وضمها بين ذراعيه. وعندما لمسها، ندت عنها صيحة مثل طائر نورس فزِع، فاستيقظت من نومها، وهي تنظر له برعب بعينيها اللتين بلون حجر الجمشت الأرجواني. قاومته محاولة الهرب، إلا أنه ضمها إليه بقوة، ولم يدعها تفلت منه.

وعندما وجدت أنها لا يمكنها الفرار منه بأي طريقة، شرعت في البكاء وقالت: «أتوسل إليك أن تتركني، فأنا الابنة الوحيدة للملك، ووالدي شيخ وحيد».

لكن الصياد الشاب رد قائلًا: «لن أدعك ترحلين حتى تعديني أنك ستأتين، وتغنين لي كلما ناديتك، فالأسماك تحب الاستماع لغناء أهل البحر، وبهذا ستمتلئ شباكي».

صاحت عروس البحر: «هل حقًّا ستتركني لو وعدتك بذلك؟».

قال الصياد الشاب: «بكل صدق، سأدعكِ ترحلين».

لذا وعدته بما أراده، وأقسمت عليه بقسم أهل البحر. فأرخى ذراعيه عنها، وغاصت هي في المياه، وهي ترتعد بخوف غريب.

في كل مساء، كان الصياد الشاب يخرج للبحر، وينادي حورية البحر، فتصعد من الماء، وتغني له، بينما تسبح الدرافيل حولها، وطيور النورس تحلق فوق رأسها.

وكانت تغني أغنياتها الرائعة: تغنت بأهل البحر الذين يقودون قطعانهم من كهف لآخر، ويحملون صغار العجول على أكتافهم، وتغنت بالترايتون بلحاهم الخضراء، وصدورهم المشعرة، وهم ينفخون في الأبواق المصنوعة من قواقع البحر، عندما يمر الملك. كما تغنت بقصر الملك المبني بأكمله من الكهرمان، وله سقف من الزمرد الصافي، وأرض من اللؤلؤ البراق. وتغنت بحدائق البحر حيث تتماوج مراوح المرجان الضخمة المزركشة بالثقوب طوال اليوم، بينما تسبح الأسماك من بينها كطيور فضية، وحيث تتشبث شقائق نعمان البحر بالصخور، وتزدهر البراعم الوردية وسط الرمال الصفراء. كما تغنت بالحيتان الضخمة القادمة من بحار الشمال، وقد تعلقت قطع الثلج الحادة بزعانفها. تغنت بالسيرينا(7) التي تحكي أروع الحكايات، لدرجة أن البحارة يضطرون لسد آذانهم بالشمع كي لا يسمعوها، ويقفزوا للماء فيموتون غرقًا. تغنت بالسفن الغارقة، بصواريها الطويلة، والبحارة الذين تجمدوا وهم عالقون بالحبال، بينما سمك الأسقمري

يسبح من كوات السفينة المفتوحة. كما تغنت بمحار البرنقيل، هذا الرحالة العظيم الذي يلتصق بعوارض السفن، ويجوب العالم. وتغنت بالحبّار الذي يعيش على جوانب الجروف الصخرية، ويمد أذرعه الطويلة السوداء، وفي مقدوره أن يجعل الليل يحل متى شاء ذلك. تغنت بالنوتي الذي له قارب من الأوبال، ويبحر بشراع من حرير. تغنت بغرانيق (8) الماء السعداء الذين يعزفون على قيثاراتهم، فيسحرون وحش الكراكن حتى يخلد للنوم. وتغنت بالأطفال الذين يمسكون بالدرافيل الزلقة، ويضحكون وهم يمتطون ظهورها. وتغنت بحوريات البحر المستلقيات في زبد البحر الأبيض، وأذرعهن ممدودة للبحارة. وتغنت بأسود البحر بأنيابها المقوسة، وبأفراس البحر، وعرفها الطافي في الماء.

(7) السيرينا في الأساطير اليونانية القديمة هي حورية بحرية لها رأس امرأة وجسد طير، تغوي الملاحين بغنائها الساحر حتى توردهم التهلكة.

(8) غرانيق البحر ويسمى أيضًا عريس البحر هو الذكر من حوريات البحر، نصفه العلوي جسد إنسان بينما نصفه السفلي ذيل سمكة.

وبينما هي تغني، صعدت كل أسماك التونة من الأعماق لتستمع إليها، فألقى الصياد الشاب شباكه، وأمسك بها، واصطاد البعض الآخر برمحه. وعندما يمتلئ قاربه، كانت حورية البحر تغوص في البحر وهي تبتسم له.

لكنها لم تقترب منه أبدًا بدرجة تسمح له بلمسها. أحيانًا كان يناديها

مترجيًا إياها، لكنها كانت ترفض. وعندما كان يحاول القبض عليها، كانت تغوص في الماء كالفقمة، فلا يراها ثانية في ذلك اليوم. وفي كل يوم، كان صوتها يزداد عذوبة في أذنيه، لدرجة أن صوتها أنساه شباكه، وحيله، ولم يعد يهتم بعمله. مرت مجموعات أسماك التونة

بزعانفها القرمزية، وعيونها التي في بريق الذهب، لكنه لم يعرها أي انتباه. بقي رمحه إلى جواره دون استخدام، وظلت سلاله المصنوعة من الصفصاف المجدول خاوية. بفم فاغر وعينين مترعتين بالعجب، جلس في قاربه في سكون وهو يستمع إليها. ظل يستمع حتى لفّه ضباب البحر، ولوّن القمر أطرافه السمراء باللون الفضي.

وذات مساء ناداها قائلًا: «أيتها الحورية الصغيرة، يا حورية يا صغيرة، أنا أحبكِ. فلتتخذيني زوجًا لكِ، فأنا أعشقك».

لكن حورية البحر هزت رأسها، وردت قائلة: «لديك روح بشرية. لو أنك تخلصت من روحك، يمكنني حينها أن أحبك».

تحدّث الصياد الشاب نفسه قائلًا: «وما فائدة روحي؟ فلا يمكنني أن أراها أو ألمسها. وأنا لا أعرفها. بالقطع سوف أتخلص منها لأجني الكثير من السعادة في المقابل». انفلتت صيحة فرح من بين شفتيه، ووقف في قاربه الملون مادًّا ذراعيه لحورية البحر وهو يصيح: «سوف أتخلص من روحي، وستكونين أنت عروسي، وأنا زوجك، وسنحيا في أعماق البحر معًا. وستريني كل ما تغنيتِ لي به، وسأنفّذ لك كل ما تشائين، ولن نفترق أبدًا».

فضحكت حورية البحر الصغيرة من السعادة، وأخفت وجهها بكفيها.

صاح الصياد الشاب: «لكن كيف أتخلص من روحي؟ أخبريني كيف، وسأنفذ الأمر».

قالت الحورية الصغيرة: «وا أسفاه! لا أعرف كيف. فأهل البحر ليست لهم أرواح». وغاصت في الأعماق وهي تنظر له بحزن.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، وقبل أن ترتفع الشمس فوق التل، توجه الصياد الشاب إلى منزل الكاهن، وقرع الباب ثلاث مرات.

نظر أحد الرهبان من فتحة صغيرة في الباب، وعندما رأى من الطارق، فتح المزلاج وقال له: «ادخل».

وَلج الصياد الشاب، وركع على ركبتيه فوق الأسل العطِر الذي افترش الأرض، وصاح قائلًا للكاهن الذي كان يقرأ في الكتاب المقدس: «يا أبتاه، لقد وقعت في حب واحدة من أهل البحر، وروحي تعيقني عن تحقيق غايتي. فلتخبرني كيف أستطيع التخلص منها، ففي الواقع ليست لي حاجة بها. فما قيمة روحي بالنسبة لي؟ فأنا لا أراها ولا أستطيع أن ألمسها، ولا أعرفها».

فضرب الكاهن صدره وقال: «وا أسفاه، وا أسفاه، إما أنك قد أصبت بالجنون، أو ربما تناولت عشبًا سامًا. فالروح هي أنبل ما في

الإنسان، منحنا إياها الرب كي نستغلها بنبل. لا يوجد ما هو أغلى من الروح البشرية، ولا يمكن أن يضاهيها أي شيء في هذا العالم. فهي تساوي كل ذهب العالم، وهي أثمن من كل ياقوت الملوك. لذا لا تعد للتفكير في هذا الأمر مرة أخرى يا بني، فهو ذنب لا يغتفر. أما بالنسبة لأهل البحر، فهم في ضلال، ومن يتعامل معهم أيضًا في ضلال. فهم مثل الحيوانات في الحقول، لا يميزون الخير من الشر، ولم يمت المسيح من أجلهم هم»».

امتلأت عينا الصياد الشاب بالدموع، عندما سمع كلمات الكاهن التي تملؤها المرارة، ونهض قائمًا وهو يقول له: «يا أبتاه، إن الفون يحيون في الغابة في سعادة، وعلى الصخور يجلس غرانيق الماء بقيثاراتهم المصنوعة من الذهب الأحمر. فدعني أكن مثلهم، أتوسل إليك، فأيامهم كأيام الزهور. أما بالنسبة لروحي، فما الفائدة التي أجنيها منها، إذا كانت تحول بيني وبين من أحب؟»».

صاح الكاهن وهو يعقد حاجبيه: «حب الجسد أمر حقير. وكل الأشياء الوثنية التي تهيم في أرض الرب دنيئة ومليئة بالشر. ملعونون هم الفون في الغابة، وملعونة كل الكائنات التي تغني في البحر! فقد سمعتهم في الليل وهم يحاولون إغوائي لأترك صلاتي. فهم يطرقون النوافذ ضاحكين، ويهمسون في أذني بالحكايات عن متعهم المحفوفة بالأخطار. كما أنهم يغووني بالمغريات، ويسخرون مني عندما أصلي. إنهم في ضلال. أقول لك، إنهم في ضلال تام. فبالنسبة لهم، لا توجد جنة ولا نار، ولن يجدوا اسم الرب في أي منهما»».

صاح الصياد الشاب قائلًا: «يا أبتاه، إنك لا تدرك ما تقوله. فذات مرة، اصطدت في شباكي ابنة أحد الملوك. وهي أجمل من نجم الصباح، وأنصع بياضًا من القمر. وأنا على استعداد للتخلي عن روحي مقابل جسدها، ولحبها سأتخلى عن الجنة. فلتخبرني ما أسألك عنه، ودعني أرحل في سلام».

صاح الكاهن: «اخرج! اخرج من هنا! لحبيبتك في ضلال، وستضل أنت معها!».

ولم يباركه، بل طرده للخارج.

توجه الصياد الشاب للسوق، وهو يسير ببطء منكس الرأس، كمن هو في حزن شديد. وعندما شاهده التجار، أخذوا يتهامسون، وتقدم أحدهم لملاقاته، مناديًا إياه باسمه ثم قال له: «ما الذي لديك لتبيعه؟». رد قائلًا: «سأبيعك روحي. أستحلفك أن تشتريها مني، فأنا مرهق بسببها. وما الفائدة التي أجنيها من روحي؟ فلا يمكنني أن أراها، ولا أقدر على لمسها، وأنا حتى لا أعرفها».

لكن التجار سخروا منه وقالوا: «وما الفائدة التي يمكننا أن نجنيها من روح بشرية؟ فهي لا تساوي حتى قطعة صغيرة من الفضة. لكن لو بعتنا جسدك وصرت عبدًا، سنكسوك بالملابس التي بلون البحر الأرجواني، ونضع خاتمًا على إصبعك، ونجعلك خادمًا لجلالة الملكة. لكن لا تحدثنا عن الروح، فهي لا تساوي أي شيء بالنسبة لنا، ولا قيمة لها، يمكننا الاستفادة منها».

فحدّث الصياد الشاب نفسه قائلًا: «يا له من أمر غريب! فالكاهن أخبرني أن الروح تساوي كل ذهب العالم، بينما يقول التجار إنها لا تساوي قطعة صغيرة من الفضة». ثم خرج من السوق، وذهب لشاطئ البحر، وجلس يفكر فيما سيفعله.

وعند الظهيرة، تذكر أحد رفاقه الذي كان يعمل في جمع الأعشاب البحرية، والذي أخبره عن ساحرة شابة، تعيش في كهف عند رأس الخليج، وكيف أنها بارعة للغاية في الأعمال السحرية. لذا نهض راكضًا من شدة حماسه، حتى يتخلص من روحه، مخلفًا وراءه سحابة من الغبار، وهو يسرع في طريقه على رمال الشاطئ. عرفت الساحرة بقدومه من الشعور بالحكة الذي أحست به في كفها، فضحكت وحلّت شعرها الأحمر. وقفت أمام مدخل الكهف، وشعرها منسدل على كتفيها، وفي يدها عود من الشوكران البري، الذي كانت به بعض البراعم.

صاحت قائلة، وهو يصعد المنحدر لاهثًا، قبل أن يركع أمامها: «ما الذي تحتاجه؟ ما الذي تحتاجه؟ أن تملأ الأسماك شباكك عندما لا تكون الريح مواتية؟ عندي مزمار صغير من القصب، تأتي أسماك البوري سابحة إلى الخليج عندما أنفخ فيه. لكن له ثمن أيها الفتى الجميل، له ثمن. ما الذي تحتاجه؟ ما الذي تحتاجه؟ عاصفة تغرق السفن، وتحمل الصناديق المليئة بالكنوز الباذخة إلى الشاطئ؟ لدي عواصف أكثر مما لدى الريح، فأنا أخدم من هو أقوى من الريح.

وباستخدام غربال وسطل من الماء بمقدوري أن أرسل السفن الضخمة إلى قاع البحر. لكنني أطلب ثمنًا لذلك أيها الفتى الجميل، أريد ثمنًا مقابل ذلك. ما الذي تحتاجه؟ ما الذي تحتاجه؟ فأنا أعرف زهرة تنمو في الوادي، لا يعرف أمرها سواي. بتلاتها بلون أرجواني، وفي قلبها نجمة، وعصيرها في بياض الحليب. إذا لامست بهذه الزهرة شفتي الملكة القاسيتين، ستتبعك في أرجاء العالم بأسره. ستنهض من فراش الملك، وفي العالم بأسره ستتبعك. لكن لها ثمن أيها الفتى الجميل، لها ثمن. ما الذي تحتاجه؟ ما الذي تحتاجه؟ بمقدوري أن أسحق ضفدعًا، وأصنع منه حساءً، وأقلّب الحساء بكف رجل ميت. لو نثرته على عدوك بينما هو مستغرق في النوم، سيتحول إلى أفعى سوداء، وستقتله أمه بذاتها. ويمكنني أن أسحب القمر من السماء بعجلة، وأن أريك الموت في كرة من البلور. ما الذي تحتاجه؟ ما الذي تحتاجه؟ أخبرني ما ترغب فيه، وسأمنحك إياه، لكنك سوف تدفع لي الثمن أيها الفتى الجميل، سوف تدفع لي الثمن».

قال الصياد الشاب: «ما أرغب فيه هو مجرد أمر بسيط. إلا أن الكاهن غضب مني وطردني. ما هو إلا أمر بسيط، لكن التجار سخروا مني، ورفضوا طلبي. لذا فقد أتيتُ إليكِ، بالرغم من أن الناس ينعتونك بالشر، ومهما كان الثمن فسوف أدفعه».

سألته الساحرة وهي تقترب منه: «ما الذي تريده؟».

جاوبها الصياد الشاب قائلًا: «أرغب في التخلص من روحي».

شحبت الساحرة، وارتعدت، وأخفت وجهها في عباءتها الزرقاء، تمتمت قائلة: «أيها الفتى الجميل، أيها الفتى الجميل، هذا أمر في غاية الفظاعة».

أبعد خصلات شعره البني عن عينيه، وضحك قائلًا: «لا تعني روحي أي شيء بالنسبة لي. فأنا لا أراها ولا أستطيع أن ألمسها. كما إنني حتى لا أعرفها».

سألته الساحرة، وهي تنظر له بعينيها الجميلتين: «ما الذي ستمنحني إياه لو أخبرتك؟»».

قال: «خمس قطع من الذهب، وشباك الصيد، والمنزل المبني من القصب الذي أعيش فيه، والقارب الملون الذي أبحر به. أخبريني فقط كيف أتخلص من روحي، وسأمنحك كل ما أملكه»».

ضحكت منه ساخرة، وضربته بعود الشوكران. ردت قائلة: «يمكنني أن أحول أوراق الشجر الخريفية إلى ذهب، وبمقدوري أن أغزل أشعة القمر الشاحبة لأصنع الفضة، إذا ما رغبت في ذلك. فالذي أعمل في خدمته أغنى من كل ملوك العالم، وله السيادة على سلطانهم»».

صاح قائلًا: «ما الذي أمنحك إياه إذن، لو لم يكن الثمن من الذهب أو الفضة؟»».

مسحت الساحرة على شعره بيدها البيضاء النحيلة، وغمغمت قائلة:

«عليك أن ترقص معي أيها الفتى الجميل»، وابتسمت وهي تحدثه.

صاح الصياد الشاب بتعجب، وهو ينهض قائمًا: «لا شيء سوى ذلك؟».

جاوبته وهي تبتسم ثانية: «لا شيء سوى ذلك».

قال: «إذن سنرقص معًا في مكان خفي عند الغروب، وبعد أن نرقص ستخبرينني بما أرغب في معرفته».

هزت رأسها وغمغمت قائلة: «عندما يكتمل القمر بدرًا، عندما يكتمل القمر بدرًا». ثم تجولت بنظرها حولها وهي تصيخ السمع. ارتفع عصفور أزرق طائرًا من عشه، وهو يصرخ محلقًا فوق التلال الرملية، بينما تحركت ثلاثة طيور مرقطة وسط الحشائش الرمادية الخشنة، وهي تصفر. لم يكن هناك أي صوت آخر بخلاف صوت الموج، وهو ينحت الحصى الناعم في الأسفل. لذا مدت يدها، وجذبته إليها، وقربت شفتيها الجافتين من أذنه. همست له قائلة: «عليك أن تأتي لقمة الجبل الليلة. فاليوم هو يوم عبادتنا، وسيكون هو حاضر هناك».

فَزِع الصياد الشاب، ونظر إليها، فضحكت مظهرة أسنانها البيضاء.

سألها: «من هذا الذي تتحدثين عنه؟».

ردت قائلة: «لا يهم. فلتذهب الليلة، ولتقف أسفل أغصان شجرة الشرد، وانتظر قدومي. ولو ركض كلب أسود باتجاهك، اضربه

بغصن من الصفصاف، وسوف ينصرف. ولو حدثتك بومة فلا ترد عليها. وعندما يكتمل القمر بدرًا، سأنضم إليك وسنرقص معًا على العشب».

سألها قائلًا: «لكن هل تقسمين لي أنكِ ستخبرينني كيف أتخلص من روحي؟».

تحركت لتقف في الشمس، وسرت الريح بين خصلات شعرها. ردت قائلة: «أقسم لك بحوافر الماعز».

صاح الصياد الشاب قائلًا: «أنت أفضل الساحرات على الإطلاق. وبالتأكيد سوف أرقص معك الليلة على قمة الجبل. في الحقيقة، كنت أفضّل لو أنك طلبت مني الذهب أو الفضة، لكنك ستنالين الثمن الذي طلبته، فهو مجرد شيء بسيط». ثم خلع قبعته، وحنى لها رأسه، قبل أن يركض عائدًا للبلدة، والسعادة تغمره.

راقبته الساحرة وهو يمضي، وعندما ابتعد عن نظرها، دلفت لكهفها، وأخرجت مرآة من صندوق محفور من خشب الأرز، ووضعتها في إطار، ثم أحرقت عشب اللويزة في الفحم المشتعل أمامها، وتأملت لفائف الدخان المتصاعد. بعد حين، كورت قبضتيها في غضب، وغمغمت قائلة: «يجب أن يكون ملكي أنا. فأنا أضاهيها جمالًا».

وفي المساء عندما بزغ القمر، صعد الصياد الشاب لقمة الجبل، ووقف تحت أغصان شجرة الشرد. امتد البحر الدائري عند قدميه

كدرع معدني لامع، وتحركت ظلال قوارب الصيد في الخليج الصغير. نادته باسمه بومة ضخمة، لها عينان صفراوان بلون الكبريت، إلا أنه لم يجبها. ثم أتى كلب أسود يركض نحوه مزمجراً، فضربه بفرع من الصفصاف، فهرب بعدها الكلب وهو يئن.

وعند منتصف الليل، جاءت الساحرات طائرات في الجو مثل الخفافيش. صِحنَّ معبرات عن ضيقهن من الرائحة، وهن يهبطن للأرض وقلنَّ: «يوجد هنا شخص غريب لا نعرفه!». وتشممن الهواء، وتبادلن الثرثرة، وهن يحركن أيديهن بالإشارة. وأخيرًا وصلت الساحرة الشابة، وشعرها الأحمر يتطاير مع الهواء. كانت ترتدي ثوبًا من نسيج ذهبي مطرز بعيون الطواويس، وعلى رأسها قبعة صغيرة من المخمل الأخضر.

صرخن قائلات عندما رأينها: «أين هو، أين هو؟». لكنها اكتفت بالضحك، وركضت تجاه شجرة الشرد. أمسكت بيد الصياد، وقادته لضوء القمر وبدأت في الرقص.

لفوا في دوائر، وقفزت الساحرة الشابة عاليًا، لدرجة أنه رأى كعب حذائها القرمزي. وفجأة، ارتفع صوت حصان يركض على الجهة المقابلة للراقصين، لكن لم يكن هناك أي حصان ظاهر للعيان، فشعر بالخوف.

صاحت الساحرة: «أسرع». وألقت بذراعيها حول عنقه، ولفحت أنفاسها الحارة وجهه. صاحت: «أسرع، أسرع!». وبدت الأرض

وكأنها تدور أسفل قدميه، واضطرب عقله، وانتابه شعور عارم بالرعب، وكأن هناك كائنًا شريرًا يراقبه. ما لبث أن تنبه أخيرًا إلى وجود- أسفل ظل صخرة- هيئة شخص ما، لم يكن موجودًا من قبل.

كان رجلًا يرتدي حلة من المخمل الأسود بطراز إسباني. وكان وجهه شاحبًا بطريقة غريبة، إلا أن شفتيه كانتا حمراوين مثل الورد. بدا عليه الضجر، وجلس مستندًا للخلف، وهو يعبث بمقبض خنجره بفتور. وعلى العشب بجواره، ارتمت قبعة مزينة بالريش، وزوج من القفازات المخصصة لركوب الخيل مزينة بدانتيل مذهب، ومطرزة باللؤلؤ بطريقة غريبة. وتدلت على كتفيه عباءة قصيرة مبطنة بفراء السمور، بينما تزينت يداه البيضاء النحيفة بالخواتم. وارتخت جفونه الثقيلة على عينيه.

راقبه الصياد الشاب كمن وقع تحت تأثير سحر، وأخيرًا التقت أعينهما. وكلما رقص، بدا له أن أعين الرجل تراقبه. سمع الساحرة وهي تضحك، فأمسك بوسطها ودار معها بجنون.

فجأة، نبح كلب في الغابة، فتوقف الراقصون، واصطفوا أزواجًا ليتقدموا من الرجل، ويركعوا أمامه مقبّلين يده. وكلما فعلوا ذلك ارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيه المغرورتين، كما يمس جناح الطائر صفحة الماء فيضحكه. لكن ابتسامته كانت مشوبة بالازدراء. وظل يحدق في الصياد الشاب.

«تعال! دعنا نتعبد». همست له الساحرة، وهي تقوده من يده،

وانتابته رغبة عارمة بأن يفعل مثلما طلبت منه، فتبعها. لكن عندما اقترب، ودون أن يعرف لِمَ فعل ذلك، رسم على صدره علامة الصليب، ونادى باسم الرب.

ما أن فعل ذلك، حتى صرخت الساحرات مثل الصقور، وطرن بعيدًا. واعتصر الألم الوجه الشاحب الذي كان يراقبه. توجه الرجل ناحية غابة صغيرة، وأطلق صفيرًا. جاء حصان إسباني بسرج من الفضة، راكضًا لملاقاته. وبينما هو يعتلي السرج، استدار ونظر للصياد الشاب بحزن.

حاولت الساحرة ذات الشعر الأحمر أن تطير مبتعدة هي الأخرى، إلا أن الصياد أمسك معصميها، وقبض عليها بقوة.

صاحت قائلة: «اتركني. دعني أرحل. فقد نطقت بذلك الاسم الذي لا يجب ذكره، وأشرت بالعلامة التي لا يجب أن تقع عليها العيون».

رد قائلًا: «لا، لن أتركك حتى تخبريني بالسر».

قالت الساحرة: «أي سر؟»، وهي تصارعه كقط بري، وتعض شفتيها اللتين علاهما الزبد.

رد قائلًا: «أنت تعرفين أي سر».

اغرورقت عيناها اللتان بخضرة النجيل بالدموع، وقالت للصياد: «اسألني أي شيء إلا هذا!».

فضحك، وقبض عليها بشدة أكثر.

وعندما رأت أنه لا يمكنها الفرار همست قائلة له: «بالتأكيد أنا في مثل جمال بنات البحر، وفي نفس بهاء أولئك الذين يعيشون وسط زرقة المياه»، وتوددت إليه مقربة وجهها منه.

إلا أنه عبس، ودفعها بعيدًا وهو يقول لها: «إن لم تفي بوعدك الذي قطعته لي، فسوف أذبحك أيتها الساحرة الكذوب».

ارتعدت، وشحبت، حتى صارت بلون زهور شجرة يهوذا الرمادية. تمتمت قائلة: «فليكن ما يكون. فهي روحك أنت، وليست روحي أنا. فتلفعل بها ما تشاء». استلت من حزامها سكينًا صغيرًا، له مقبض مكسو بجلد أفعى خضراء، وناولته إياها.

سألها بتعجب: «ماذا أفعل بهذه؟».

صمتت لبضع لحظات، وارتسم الرعب على ملامحها. ثم أبعدت خصلات شعرها عن جبينها، وهي تبتسم له ابتسامة غريبة وتقول: «ما يطلق عليه البشر اسم ظل جسدهم ليس ظل الجسد، بل هو جسد الروح. عليك أن تقف على شاطئ البحر موليًا ظهرك للقمر، وتقطع من عند قدميك ظلك الذي هو في الواقع جسد روحك، ثم مُر روحك بالرحيل وستنفذ ما أمرتها به».

ارتعد الصياد الشاب، وغمغم قائلًا: «هل هذه هي الحقيقة؟».

صاحت قائلة: «إنها الحقيقة، وأتمنى لو أنني لم أخبرك بها».

وانهارت ممسكة بركبتيه وهي تبكي، فأبعدها عنه، وتركها على الحشائش الخشنة، ثم توجه لحافة الجبل، وهو يضع السكين في حزامه، وشرع في الهبوط.

ونادته روحه التي بداخله وقالت: «انظر، لقد بقيت معك طوال هذه السنوات وكنت في خدمتك. لا تتخلص مني الآن، فما الأذى الذي سببته لك؟».

فضحك الصياد الشاب، وردّ قائلًا: «أنتِ لم تؤذيني، لكن لا حاجة لي بكِ. فالعالم واسع، وهناك جنة أيضًا وجحيم، وذلك المكان المعتم كالغسق الكائن فيما بينهما. فلتذهبي أينما شئتِ، لكن لا تزعجيني، فحبيبتي تناديني».

فتوسلت إليه روحه متضرعة، إلا أنه لم يعرها أي اهتمام، لكنه قفز من صخرة لأخرى بثبات، وكأنه ماعز جبلي، حتى وصل أخيرًا لمستوى الأرض، عند شاطئ البحر الأصفر اللون.

بقوامه الممشوق، وأطرافه البرونزية، وكأنه تمثال نحته مثّال إغريقي، وقف على الرمال موليًا ظهره للقمر، فارتفعت من وسط الزبد أذرع بيضاء تلوّح له منادية، ومن بين الأمواج صعدت هيئات معتمة تحييه بإجلال. وامتد أمامه ظله الذي كان جسد روحه، ومن خلفه تعلّق القمر وسط سماء بلون العسل.

خاطبته روحه قائلة: «لو كان يتوجب عليك بالفعل أن تتخلص مني، فلا ترسلني بعيدًا دون قلب. فالعالم مكان قاس، اعطني قلبك كي

آخذه معي».

فهز رأسه، وابتسم وهو يقول: «وبما سأحب معشوقتي لو أعطيتك أنتِ قلبي؟».

قالت روحه: «فلتتحلّ بالرحمة، ولتعطني قلبك. فالعالم مليء بالقسوة، وأنا أشعر بالخوف».

رد قائلًا: «قلبي ملك لمحبوبتي، لذا لا تتلكأي هنا، ولترحلي بعيدًا».

سألت روحه: «ألا يمكنني أن أحب أنا أيضًا؟».

صاح الصياد الشاب: «هيا ارحلي، فلا حاجة لي بكِ»، وأمسك بالسكين الصغير بمقبضه المكسو بجلد الأفعى الأخضر، وقطع ظله من حول قدميه، فنهض واقفا أمامه، وهو ينظر إليه، وكان يشبهه تمامًا.

تراجع للوراء، وهو يدس السكين في حزامه، وقد غمره الشعور بالعجب. غمغم قائلًا: «فلترحلي من هنا، ولا تريني وجهكِ مرة أخرى».

قالت روحه: «لا، بل يجب أن نلتقي مرة أخرى». كان صوتها منخفضًا يشبه الناي، وبالكاد تحركت شفتاها وهي تتحدث.

قال الصياد الشاب: «كيف سنلتقي؟ هل ستتبعينني إلى أعماق البحر؟».

قالت روحه: «سوف آتي لهذا المكان مرة كل عام، وأناديك. فربما تكون بحاجة إلي».

قال الصياد الشاب: «ولماذا أحتاج إليك؟ لكن لكِ ما تشائين». ثم غاص في أعماق المياه، ونفخ الغرانيق في أبواقهم، وصعدت حورية البحر الصغيرة لملاقاته، ثم أحاطت عنقه بذراعيها وقبّلت شفتيه.

وقفت الروح على الشاطئ الخالي تراقبهم، وعندما غاصوا في أعماق البحر، مضت في طريقها بين المستنقعات وهي تبكي.

وبعد انقضاء عام، عادت الروح لشاطئ البحر، ونادت الصياد الشاب، فصعد من الأعماق وقال: «لماذا تنادينني؟».

أجابت الروح قائلة: «اقترب أكثر كي أتحدث معك، فقد شاهدت الكثير من الأشياء الرائعة».

فاقترب منها، وتمدد في المياه الضحلة، وأسند رأسه على يده، وهو يستمع إليها.

حادثته الروح قائلة: «عندما غادرتك وليتُ وجهي ناحية الشرق، وارتحلتُ إلى هناك. فمن الشرق تأتي كل الحكمة. سافرتُ لمدة ستة أيام، وفي صباح اليوم السابع، وصلتُ لتل يقع في بلاد التتار. جلستُ تحت ظل شجرة طرفاء كي أحتمي من الشمس. كانت الأرض جافة، وقد أحرقتها شدة الحرارة، والناس يمرون جيئة وذهابًا عبر السهل، مثل ذباب يزحف على قرص من النحاس الأحمر المصقول.

وعند الظهيرة، ارتفعت سحابة حمراء من الغبار، قادمة من أفق الأرض المنبسطة. عندما شاهدها التتار، شدوا أقواسهم الملونة،

وقفزوا على ظهور خيولهم، وركضوا لملاقاتها. صرخت النساء وهربن للاختباء داخل العربات خلف ستائر من اللباد.

عاد التتار عند الغسق، لكن خمسة منهم كانوا مفقودين، كما أصيب عدد غير قليل من الذين عادوا. ربطوا خيولهم في العربات، وابتعدوا مسرعين. خرجت بعدها ثلاث من بنات آوى من أحد الكهوف وهي تنظر إليهم. تشمموا الهواء بأنوفهم، ثم ساروا في الاتجاه المعاكس.

وعندما بزغ القمر، رأيت نارَ مخيم مشتعلة على السهل فسرتُ تجاهها. كانت هناك مجموعة من التجّار جالسين على البسط، وقد تحلقوا حول النار. رُبطت جمالهم خلفهم، بينما كان عبيدهم من الزنوج ينصبون على الرمال خيامًا من الجلد المدبوغ، ويبنون جدارًا عاليًا من صبار التين الشوكي.

عندما اقتربتُ منهم، نهض كبير التجار شاهرًا سيفه، وسألني عما أريده.

أجبته قائلًا إنني كنت أميرًا في بلادي، وأنني هربت من التتار الذين أرادوا استعبادي. فابتسم كبير التجار وأراني خمسة رؤوس مثبتة فوق أعواد طويلة من القصب.

سألني بعدها عن اسم رسول الله، فأجبته قائلًا: «محمد».

وعندما سمع اسم نبيهم المزيف انحنى لي، وأمسك بيدي، وأجلسني

إلى جانبه. جلب لي أحد العبيد حليب فرس في إناء خشبي، وقطعة من لحم الضأن المشوي.

بدأنا رحلتنا عند الفجر، وركبتُ أنا ناقة حمراء إلى جوار كبير التجار، بينما ركض أمامنا غلام يحمل رمحًا. سار المقاتلون على جانبي القافلة، وتبعتنا البغال المحملة بالبضائع. كانت القافلة مؤلفة من أربعين جمل والبغال ضعف ذلك العدد.

سافرنا من بلاد التتار لبلاد يلعن أهلها القمر. وهناك شاهدنا الغرفين (9) يحرس ذهبهم على الصخور البيضاء، والتنانين التي تغطيها الحراشف نائمة في كهوفها. وعندما عبرنا فوق الجبال، حبسنا أنفاسنا كي لا تنهار فوقنا الثلوج، وربط كلٌ منا عينيه برباط من الشاش. وعندما مررنا بين الوديان، رمانا الأقزام بالسهام من تجاويف الأشجار. وفي الليل سمعنا الرجال المتوحشين، وهم يدقون الطبول. عندما وصلنا لبرج القرود، وضعنا أمامهم الفاكهة فلم يؤذونا. وعندما وصلنا لبرج الأفاعي أعطيناهم حليبًا دافئًا في أواني من النحاس الأصفر، فسمحوا لنا بالمرور. وخلال رحلتنا مررنا بشاطئ نهر جيحون ثلاث مرات. عبرنا النهر مستقلين طوفًا خشبيًا، ثُبتت به قراب منفوخة من الجلد. هاجمتنا أفراس النهر وحاولت قتلنا، وارتجفت الجِمال لرؤيتها.

(9) الغرفين هو حيوان أسطوري له جسم أسد، ورأس وجناحا عقاب.

وفرض علينا ملوك المدن التي مررنا بها الضرائب، لكنهم لم يسمحوا لنا بالعبور من بوابات مدنهم. كانوا يلقون لنا بالخبز من فوق الأسوار،

بالإضافة إلى كعك صغير مصنوع من الذرة والعسل، وكعك من الدقيق الفاخر المحشو بالتمر. وكنا نمنحهم حبة من الكهرمان مقابل كل مائة سلة.

وعندما كان يرانا سكان القرى قادمين، كانوا يسممون الآبار، ويهربون لقمم التلال. حاربنا رجال الماجداي الذين يولدون شيوخًا، ثم يصغرون في العمر عامًا بعد عام، ويموتون عندما يصلون لسن الطفولة. كما قاتلنا اللاكتروي، الذين يدّعون أنهم أبناء النمور، ويصبغون أجسادهم باللونين الأصفر والأسود. والأورانتس الذين يدفنون موتاهم على قمم الأشجار، ويعيشون في جوف الكهوف المظلمة؛ خشية أن تقتلهم الشمس التي يتعبدون لها. وحاربنا الكريمنيانز الذين يعبدون التماسيح، ويقدمون لها أقراطًا من الزجاج الأخضر، ويطعمونها الزبد والطيور الطازجة. كما قاتلنا الأجازونباي الذين لهم وجوه تشبه الكلاب، والسيبانز الذين لهم حوافر مثل الخيل، ويركضون أسرع من كل الجياد. مات ثلث أفراد جماعتنا في الحرب، ومات ثلثهم الآخر جوعًا. تبادل الباقون الحديث ضدي قائلين أنني جلبت لهم سوء الطالع. لذا فقد أخذت أفعى ذات قرون من أسفل صخرة، وتركتها تلدغني، وعندما رأوا أنني لم أتأثر، شعروا بالخوف.

في الشهر الرابع، وصلنا لمدينة إليل. كان الوقت ليلًا عندما وصلنا لبستان خارج أسوار المدينة، والجو قائظ؛ إذ إن القمر كان في برج العقرب. قطفنا ثمار الرمان الناضج من على الأشجار، وكسرناها،

وشربنا عصيرها الحلو، ثم تمددنا على الأبسطة وانتظرنا بزوغ الفجر.

عند الفجر، قمنا وطرقنا بوابة المدينة. كانت مصنوعة من النحاس الأحمر، حفرت عليها تنانين البحر، وتنانين مجنحة. نظر الحراس من أعلى أبراج السور، وسألونا عما نريد. أجابهم مترجم القافلة قائلًا إننا أتينا من أرض سوريا، ومعنا الكثير من البضائع. فأخذوا رهائن من بيننا، وقالوا إنهم سيفتحون لنا البوابة عند الظهيرة، وأمرونا بالانتظار حتى ذلك الحين.

فتحوا لنا البوابة عند الظهيرة، وعندما دخلنا، خرج الناس من منازلهم متجمهرين ليلقوا علينا نظرة، ودار المنادي في المدينة معلنًا عن قدومنا، وهو يصيح خلال صدفة بحرية. وقفنا وسط السوق، وبدأ العبيد يحلون بالات الأقمشة المزركشة، ويفتحون الصناديق المنحوتة من خشب الجميز. عندما انتهوا من مهمتهم، عرض التجار بضائعهم الغريبة: الكتان المشمع من مصر، والكتان المصبوغ من بلاد أثيوبيا، والإسفنج الأرجواني من مدينة صور، ومعلقات نسجية زرقاء من صيدا، وأكواب من الكهرمان البارد، وآنية فاخرة من البلور، وأخرى غريبة من الفخار المحروق. راقبتنا مجموعة من النساء من فوق سطح أحد المنازل، وقد ارتدت واحدة منهن قناعًا من الجلد المذهب.

في اليوم الأول، جاء الكهنة وقايضوا معنا. وفي اليوم الثاني، أتى النبلاء. وفي اليوم الثالث، أصحاب الحرف والعبيد. كانت هذه هي

عادتهم مع كل التجار خلال بقائهم في المدينة.

بقينا لمدة شهر. وعندما أخذ القمر يخسر، شعرت بالملل؛ فهمت على وجهي في شوارع المدينة، ووصلت لحديقة إلههم الذي يعبدونه. كان الكهنة يرتدون أثوابًا صفراءً، ويتحركون بهدوء بين الأشجار الخضراء. وعلى رصيف من الرخام الأسود، انتصب بيت بلون الورد الأحمر، يقيم فيه إلههم. طُليت أبوابه بالورنيش، وزينتها ثيران، وطواويس من الذهب البارز المصقول. كان السقف المائل من الخزف الأخضر بلون البحر، وزين الإفريز البارز بأجراس صغيرة. وكانت الحمامات البيضاء تطير بجواره؛ فتضرب الأجراس بأجنحتها لتصدر رنينًا.

وأمام المعبد، كانت هناك بركة من الماء الصافي، رُصف قاعها بالعقيق اليماني. استلقيت بجوارها، وأخذت ألمس أوراق الشجر العريضة بأطراف أصابعي. اقترب مني أحد الكهنة، ووقف ورائي. كان يرتدي في قدميه زوجًا من النعال، أحدهما من جلد الأفعى الناعم، والآخر من ريش الطيور، وعلى رأسه قلنسوة من الجوخ الأسود تزينها أهلّة فضية. نُسج رداؤه بسبع درجات مختلفة من اللون الأصفر، واصطبغ شعره المجعد بحجر الكحل.

بعد لحظة حادثني سائلًا إياي عما أريده.

قلت له إنني أرغب في لقاء الإله.

رد الكاهن وهو ينظر إلي نظرة غريبة بعينيه الضيقتين المائلتين:

«ذهب الرب كي يصطاد».

أجبته قائلًا: «أخبرني في أي غابة، وسوف أذهب للقائه».

سوّى أطراف ثوبه الناعم بأظافره الطويلة المدببة، وغمغم قائلًا: «الرب نائم».

رددت قائلًا: «أخبرني على أي سرير، وسأذهب لحراسته».

صاح قائلاً: «الرب في وليمة».

فأجبته قائلًا: «لو كان النبيذ حلوًا سأشرب معه، ولو كان مرًا سأشرب معه أيضًا».

حنى رأسه متعجبًا، ثم أمسك بيدي لأنهض، وقادني إلى المعبد.

شاهدتُ في الحجرة الأولى صنمًا جالسًا على عرش من حجر اليشب المزين باللآلئ الضخمة. كان منحوتًا من خشب الأبنوس، وارتفاعه بحجم قامة رجل، وعلى جبينه ياقوتة، بينما يقطر الزيت الكثيف من شعره على فخذيه. اصطبغت قدماه باللون الأحمر، من دماء عنزة صغيرة مذبوحة حديثًا، وطوّق خصره حزام من النحاس الأحمر المرصع بسبعة أحجار من البيريل.

قلت للكاهن: «هل هذا هو الإله؟»، فأجابني قائلًا: «هذا هو الإله».

صحتُ قائلًا: «فلترني الإله، وإلا سأذبحك». ولمست يده فصارت ذاوية.

فتوسل إلي الكاهن قائلًا: «فليشف مولاي خادمه، وسأريه الرب».

فنفخت على يده حتى عادت لطبيعتها، وارتعد وهو يقودني لغرفة ثانية، رأيتُ فيها صنمًا يقف على زهرة لوتس منحوتة من حجر اليشم، وتتدلى منها أحجار زمرد ضخمة. كان منحوتًا من العاج، وارتفاعه ضعف قامة الرجل العادي. زُينت جبهته بحجر من الزبرجد، ودهن صدره بالمر والقرفة. كان يمسك في يده بصولجان مقوس من اليشم، وفي اليد الأخرى بلورة كروية الشكل. ارتدى في قدميه حذاءً طويلًا من النحاس الأصفر، وأحاط عنقه الغليظ عقد من حجر القمر.

قلت للكاهن: «هل هذا هو الإله؟».

فأجابني قائلًا: «هذا هو الإله».

صحتُ قائلًا: «أرني الإله وإلا سأذبحك». ولمستُ عينيه ففقد البصر.

فتضرع إليّ الكاهن قائلًا: « ليشفي مولاي خادمه، وسأريه الإله».

فنفخت على عينيه حتى ارتدّ له بصره، وارتعد ثانية وهو يقودني للحجرة الثالثة. ويا للعجب! لم يكن بها أي صنم ولا أي صورة من أي نوع، بل مجرد مرآة مستديرة الشكل من المعدن، موضوعة على مذبح حجري.

وقلت للكاهن: «أين الإله؟».

فردّ قائلًا: «لا يوجد إله هنا سوى هذه المرآة التي تراها، فهي مرآة

الحكمة. وتعكس كل الأشياء التي في السماوات أو في الأرض، سوى وجه الشخص الذي ينظر لها. فهي لا تعكسه، حتى يتمتع من ينظر إليها بالحكمة. توجد العديد من المرايا الأخرى، لكنها مرايا للرأي. أما هذه فهي المرآة الوحيدة للحكمة. ومن يملك هذه المرآة يعرف كل شيء، ولا يخفى عنه أي شيء. ومن لا يملكها لا يمتلك الحكمة. لذا فهي إلهنا الذي نعبده». ونظرت في المرآة فرأيت أن ما أخبرني به صحيح.

قمت بعد ذلك بشيء غريب، لكن ما فعلته لا يهم. ففي أحد الوديان الذي يقع على مسيرة يوم واحد من هذا المكان، أخفيت مرآة الحكمة. فلتسمح لي أن أدخل إليك مرة أخرى، وأكون في خدمتك، وستصير أكثر حكمة من كل الحكماء، وستكون الحكمة لك. اسمح لي أن أدخل إليك، ولن يكون هناك من هو في مثل حكمتك.

لكن الصياد الشاب ضحك، وصاح قائلًا: «الحب أفضل من الحكمة، وحورية البحر الصغيرة تحبني».

قالت الروح: «لا، لا يوجد هناك ما هو أفضل من الحكمة».

رد الصياد الشاب قائلًا: «بل الحب أفضل». ثم غاص في الأعماق ومضت روحه، وهي تبكي وسط المستنقعات.

بعد انقضاء العام الثاني، أتت الروح لشاطئ البحر، ونادت الصياد الشاب، فصعد من الأعماق وقال: «لماذا تنادينني؟».

فأجابته الروح قائلة: «اقترب كي أتحدث إليك، فقد شاهدت أشياء رائعة» .

فاقترب منها، وتمدد في المياه الضحلة، مسندًا رأسه على كفه واستمع إليها.

حدثته الروح قائلة: «عندما تركتك، يممت وجهي صوب الجنوب وارتحلت. فمن الجنوب يأتي كل ما هو ثمين. ارتحلت لستة أيام على الطرق المؤدية لمدينة عشتار. عبر الطرق المتربة الحمراء التي يسلكها الحجيج ارتحلت، وفي صباح اليوم السابع، رفعت نظري ويا للعجب! امتدت المدينة تحت قدمي، فقد كانت تقع في أحد الوديان.

كانت للمدينة تسعة أبواب، وأمام كل باب منهم ينتصب حصان من البرونز، يصهل عندما يأتي البدو هابطين من الجبال. كانت الأسوار مغطاة بالنحاس الأحمر، أما الأبراج فوق الأسوار فقد كانت أسقفها من النحاس الأصفر. وفي كل برج يقف رام بالسهام حاملًا قوسه في يده. عند الشروق يطلق سهمًا ليقرع ناقوسًا، وعند الغروب ينفخ في بوق مصنوع من قرون الحيوانات.

عندما حاولت الدخول، أوقفني الحراس، وسألوني عمن أكون. أجبتهم قائلًا إنني درويش في طريقي إلى مكة، حيث يوجد وشاح أخضر طرزت عليه يد الملائكة القرآن بأحرف من فضة. فلأهم العجب، وتوسلوا إلي أن أدخل.

في الداخل، كانت المدينة تشبه سوقًا كبيرًا. بالقطع كان عليك

أن تكون معي. عبر الشوارع الضيقة، ترفرف مصابيح ورقية مبهجة كفراشات ضخمة. وعندما تهب الريح فوق الأسطح، ترتفع وتنخفض كفقاعات ملونة. وأمام محالهم يجلس التجار على أبسطة حريرية. كانت لهم لِحَى طويلة سوداء، وعمائمهم مزينة بالذهب، وبين أصابعهم الهادئة تنساب مسابح من الكهرمان، والأحجار المنقوشة التي بلون القرنفل. كان بعضهم يبيع الصمغ والناردين، والعطور الغريبة الآتية من جزر بحر الهند، وزيت الورد الأحمر كثيف القوام، والمر وحبات قرنفل صغيرة الحجم تشبه المسامير. وعندما يتوقف المرء ليبادلهم الحديث، يلقون ببعض البخور على مجامر الفحم حتى يتعطر الجو. شاهدتُ رجلاً سوريًّا يحمل بين يديه عصا رفيعة مثل القصب، تتصاعد منها خيوط الدخان الرمادي، وكانت رائحتها وهي تحترق تشبه رائحة زهر اللوز الوردي في الربيع. ويبيع آخرون أساور فضية مزينة بأحجار الفيروز، ذات اللون الأزرق الفاتح، وخلاخيل من أسلاك النحاس الأصفر التي تتدلى منها لآلئ صغيرة، ومخالب نمور مرصعة بالذهب، ومخالب ذلك القط الذهبي (الفهد)، مرصعة بالذهب هي الأخرى. بالإضافة إلى أقراط من الزمرد المثقوب، وخواتم من حجر اليشم المجوف. ومن بيوت الشاي تنساب أنغام القيثارة، ويجلس مدخنو الأفيون بوجوههم الشاحبة المبتسمة ليراقبوا المارة.

في الحقيقة، كان يجب أن تكون معي. يشق باعة النبيذ طريقهم وسط الحشود حاملين قرابًا سوداء ضخمة على أكتافهم. ويبيع

معظمهم نبيذ شيراز، الذي في مثل حلاوة العسل. يقدمونه في كؤوس معدنية صغيرة، وينثرون فوقه بتلات الورد. وفي السوق يقف باعة الفاكهة، الذين يبيعون كل أنواع الفواكه: التين الناضج الطري بلونه الأرجواني، والشمام الذي له عبير المسك، ولونه أصفر كحجر التوباز، والأترج والتفاح الوردي اللون وعناقيد العنب الأبيض، وليمون بيضاوي الشكل بلون ذهبي يميل للأخضر. وذات مرة شاهدت فيلًا يمر. تلَوَّن خرطومه بالسنابار الأحمر والكركم، وعلى أذنيه امتدت شبكة من خيوط الحرير القرمزي اللون. توقف أمام أحد المحال، وشرع في أكل البرتقال، فاكتفى الرجل بالضحك. لا يمكنك أن تتخيل مدى غرابة أولئك الناس. عندما يشعرون بالسعادة، يتوجهون لباعة الطيور، ويشترون منهم طائرًا في قفص، ثم يطلقون سراحه كي تتعاظم فرحتهم. وعندما يشعرون بالحزن، يجلدون أنفسهم بالأشواك كي لا تتضاءل أحزانهم.

وذات مساء، شاهدت بعض العبيد الذين يحملون هودجًا ثقيلًا، ويمرون به عبر السوق. كان مصنوعًا من الخيزران المذهب، وقوائمه مطلية بالورنيش الأحمر اللامع، ومرصعة بالطواويس المصنوعة من النحاس الأحمر. وعلى النوافذ أُسدلت ستائر خفيفة من نسيج قطني، مطرز بأجنحة الخنافس واللآلئ الصغيرة. وأثناء مرورهم، طل منها وجه امرأة شاحب، لها ملامح شركسية وابتسمت لي. تبعتهم، فأسرع العبيد الخطو وهم متجهمين. لكنني لم أبال، فقد اعتراني شعور غامر بالفضول.

توقفوا أخيرًا أمام بيت مربع أبيض اللون. لم تكن له نوافذ، بل مجرد باب صغير يشبه باب القبر. أنزلوا الهودج، ثم طرقوا الباب ثلاث مرات بمطرقة من النحاس الأحمر. أطل أرميني يرتدي قفطانًا من الجلد الأخضر من فتحة صغيرة في الباب، ما إن رآهم حتى فتح لهم، وفرش بساطًا على الأرض فنزلت المرأة. وفي طريقها للدخول، استدارت وابتسمت لي ثانية. لم يسبق وأن رأيت أحدًا شاحبًا بهذه الدرجة من قبل.

وعندما بزغ القمر، عدتُ لذات المكان، وبحثت عن البيت، إلا أنه لم يعد في مكانه هناك. عندما رأيت ذلك، عرفت من تكون المرأة، ولِمَ ابتسمت لي.

قطعًا كان يجب أن تكون معي. وبمناسبة الاحتفال بمولد القمر الجديد، خرج الإمبراطور الشاب من قصره وتوجه للمسجد للصلاة. اصطبغ شعره ولحيته بأوراق الورد، وعلى وجنتيه نثر التبر، بينما اصطبغت أقدامه وكفاه بالزعفران الأصفر.

عند الشروق، خرج من قصره مرتديًا ثوبًا من الفضة. وعند الغروب، عاد إليه ثانية مرتديًا ثوبًا من الذهب. ألقى الناس أنفسهم أرضًا مخفين وجوههم، لكنني رفضت القيام بذلك. وقفت بجوار محل بائع التمور وانتظرت. وعندما شاهدني الإمبراطور رفع حاجبيه المصبوغين، وتوقف. وقفت ساكنًا، ولم أنحن له احترامًا. تعجب الناس من جرأتي، ونصحوني بالفرار من المدينة. لم أعرهم أي انتباه،

وذهبت للجلوس مع باعة الأصنام الغريبة، الذين كان أهل المدينة يبغضونهم، بحكم مهنتهم. وعندما قصصت عليهم ما فعلته، أعطاني كل منهم صنمًا، ورجوْني أن أرحل.

وفي ذلك المساء، بينما أنا متكئ على وسادة في بيت الشاي الكائن في شارع الرمان، دخل حرس الإمبراطور، واقتادوني إلى القصر. وعندما دخلت، أغلقوا ورائي الأبواب بالسلاسل. كان هناك في الداخل فناء ضخم، يحيط به رواق من جميع الجوانب. شيدت جدرانه من المرمر الأبيض المزين ببلاطات متناثرة باللونين الأزرق والأخضر. وكانت الأعمدة من الرخام الأخضر، والأرض من رخام بلون زهور الخوخ. لم أشاهد مثيلًا له من قبل.

وبينما أنا أمر عبر الفناء، أطلت من إحدى الشرفات امرأتان ترتديان خمارًا، وأمطرتاني باللعنات. أسرع الحراس الخطو، ورنّ صوت أعقاب حرابهم على الأرض المصقولة. فتحوا بوابة من العاج المحفور، فوجدت نفسي في حديقة مؤلفة من سبع درجات ينساب فيها الماء. أينعت فيها كؤوس التوليب، وزهور القمر، وصبار الألوي الموشّى باللون الفضي. واندفعت المياه من نافورة وسط العتمة، كعود رشيق من البلور. بدت أشجار السرو كمشاعل محترقة، وصدح عندليب بالغناء من إحدى الأشجار.

انتصب سرادق صغير في طرف الحديقة. وعندما اقتربنا خرج اثنان من الخصيان لملاقاتنا. ترجرجت أجسادهما السمينة في سيرهما،

ورمقاني بفضول بأعينهم التي كانت أجفانها صفراء اللون. انتحى أحدهما جانبًا بقائد الحرس، وهمس له بصوت منخفض، بينما ظل الثاني يمضغ أقراصًا من الحلوى العطرة الرائحة التي كان يخرجها بحركات متكلفة، من علبة بيضاوية الشكل مطلية بالمينا، ذات اللون الأرجواني الفاتح.

بعد بضع لحظات، صرف القائد الحرس، فعادوا إلى القصر، وتبعهما الخصيان وهما يسيران الهوينى، ويقطفان ثمار التوت الأسود من على الأشجار أثناء مرورهما. والتفت أكبرهما مرة موجهًا لي ابتسامة ملؤها الشر.

ثم أشار لي قائد الحرس ناحية مدخل السرادق فتقدمت دون أن أرتعد، وسحبت الستائر الثقيلة جانبًا، وولجت للداخل.

كان الإمبراطور الشاب مستلقيًا على فراش من جلود الأُسُود المصبوغة، وعلى رسغه طائر شاهين. وقف خلفه نوبي عار حتى وسطه، يرتدي عمامة بلون النحاس، وتتدلى من أذنيه المشقوقتين الأقراط الثقيلة. وعلى طاولة بجوار الفراش، كان هناك سيف معقوف ضخم من الفولاذ.

عندما رآني الإمبراطور تجهّم قائلًا: «ما اسمك؟ ألا تعرف إنني إمبراطور هذه المدينة؟». لكنني لم أجبه.

أشار بإصبعه إلى السيف المعقوف فقبض عليه النوبي، وهاجمني بضربة قوية. مر النصل من خلالي دون أن يصيبني بأذى، فسقط

الرجل أرضًا، وعندما نهض كانت أسنانه تصطك من الرعب وأخفى نفسه وراء الفراش.

قفز الإمبراطور واقفًا، وتناول رمحًا من حامل معلق عليه بعض الأسلحة وألقاه تجاهي. أمسكت به، وهو لا يزال طائر في الهواء، وقسمت قناته إلى نصفين. رماني بسهم، فرفعت يدي وأوقفته في الهواء. ثم استل خنجراً من حزام جلدي أبيض اللون، وطعن النوبي في حلقه، كي لا يحكي العبد عن عاره. تلوّى الرجل كثعبان دهسه أحدهم، وأرغت شفتاه بزبد أحمر.

ما إن مات حتى التفت الإمبراطور ناحيتي. وبعد أن مسح العرق الذي التمع على جبينه بمنديل أرجواني صغير من الحرير المزركش خاطبني قائلًا: «هل أنت نبي فلا أستطيع أن أؤذيك؟ أم ابن نبي فلا أستطيع أن أوقع بك سوءًا؟ أستحلفك أن ترحل عن مدينتي الليلة، فطالما بقيتَ فيها، لن أكون أنا سيدها».

أجبته قائلًا: «سأغادر مقابل نصف ثروتك. أعطني نصف ما تمتلكه من كنوز وسأرحل».

فأمسك بيدي وقادني إلى الحديقة. عندما رآني قائد الحرس ملأه العجب، وعندما شاهدني الخصيان اصطكت ركبهما، وسقطا أرضًا من شدة الخوف.

كانت هناك قاعة في القصر، لها ثمانية جدران من الرخام السماقي الأحمر، وسقف مغطى بالنحاس الأحمر تدلت منه المصابيح. لمس

الإمبراطور إحدى الجدران فانفتحت، ومررنا عبر دهليز أضاءته العديد من المشاعل. وفي كوات على كلا الجانبين، كانت هناك جرار نبيذ ضخمة ممتلئة عن آخرها بقطع الفضة. عندما وصلنا لمنتصف الدهليز نطق الإمبراطور بالكلمة التي لا ينبغي أن تقال، فانفتح باب من الجرانيت على نابض غير مرئي، وأخفى وجهه بكفيه كي لا يخطف البريق بصره.

لن تصدق مدى روعة ذلك المكان. كانت هناك درقات سلاحف ضخمة مليئة باللآلئ، وأحجار قمر عملاقة مجوفة، تكدست في داخلها أحجار الياقوت الحمراء. خُزن الذهب في صناديق من جلد الأفيال، والتبر في قراب جلدية. كانت هناك أحجار أوبال وزفير. الأولى في كؤوس من البلور، والأخيرة في كؤوس من حجر اليشم. وتراصت أحجار مستديرة من الزفير الأخضر فوق صحون رقيقة من العاج، وفي أحد الأركان كانت هناك أجولة حريرية مليئة بأحجار الفيروز، وأخرى مليئة بأحجار البيريل. تكدست قرون العاج المجوف بأحجار الجمشت الأرجواني، بينما امتلأت قرون من النحاس الأصفر بالعقيق الأبيض والأحمر. ومن الأعمدة المنحوتة من خشب الأرز، تدلت أعقاد من أحجار كريمة صفراء. وعلى دروع مسطحة بيضاوية الشكل تكومت أحجار الياقوت الجمري، بعضها بلون النبيذ والبعض الآخر بلون العشب. وبالرغم من كل ذلك، فما حكيت لك عنه لا يتعدى عُشر ما كان موجوداً هناك.

وعندما أنزل الإمبراطور يديه من أمام وجهه قال لي: «هذا بيت

كنوزي، ولك نصف ما به كما وعدتك. وسأمنحك الجمال مصحوبة بمن يقودونها، وسيأتمرون بأمرك، ويحملون نصيبك من الكنز إلى أي بقعة من الأرض تشتهي الرحيل إليها. وسيتم الأمر الليلة، فلا أرغب أن يرى الشمس -الذي هو والدي- أن هناك في مدينتي رجل لا يمكنني قتله».

إلا أنني أجبته قائلًا: «الذهب الموجود هنا لك، والفضة أيضًا لك، ولك هذه الجواهر وكل ما هو ثمين. أما أنا فلا حاجة لي بكل هذا. ولن آخذ منك شيئًا سوى هذا الخاتم الصغير الذي تلبسه في إصبع يدك».

فتجهم الإمبراطور، وصاح قائلًا: «لكن هذا ما هو إلا خاتم من الرصاص، ولا قيمة له. لذا خذ نصف هذه الثروة وارحل عن مدينتي».

أجبته قائلًا: «كلا، لن آخذ شيئًا سوى هذا الخاتم المصنوع من الرصاص. فأنا أعرف ما هو مكتوب بداخله وما الغرض منه».

ارتعد الإمبراطور، وتوسل إليَّ قائلًا: «خذ كل هذه الكنوز، وارحل عن مدينتي. حتى النصف الذي لي سيكون لك هو الآخر».

ثم فعلتُ شيئًا غريبًا، لكن ما فعلته لا يهم. فهناك في كهف على مسيرة يوم واحد من هذا المكان، أخفيت خاتم الكنوز. وهو لا يبعد عن هنا سوى مسيرة يوم واحد فقط، وينتظر قدومك. فمن يمتلك الخاتم يصبح أكثر ثراء من كل ملوك العالم. تعال إذن وخذه،

وستصير كنوز العالم ملكًا لك».

لكن الصياد الشاب ضحك وصاح قائلًا: «الحب أفضل من كل الكنوز. وحورية البحر الصغيرة تحبني».

قالت الروح: «لا، ليس هناك ما هو أفضل من الكنوز».

رد الصياد الشاب قائلًا: «بل الحب أفضل». ثم غاص في الأعماق، ومضت الروح في طريقها بين المستنقعات وهي تبكي.

بعد انقضاء العام الثالث، جاءت الروح لشاطئ البحر، ونادت الصياد الشاب، فصعد من الأعماق وقال: «لماذا تنادينني؟».

فردت الروح قائلة: «اقترب كي أتحدث إليك، فقد شاهدت أشياء رائعة».

فاقترب، وتمدد وسط المياه الضحلة، مسندًا رأسه إلى كفه وهو يستمع.

وقالت له الروح: «هناك في مدينة أعرفها، يقع أحد الخانات بجوار نهر. جلست هناك مع البحارة الذين كانوا يشربون لونين من النبيذ، ويتناولون الخبز المصنوع من الشعير، وسمكًا صغيرًا مملحًا، يقدم مع ورق الغار والخل. وبينما نحن جالسون نتبادل المزاح، دخل علينا شيخ كبير، يحمل بساطًا من الجلد، وعودًا له قرنان من الكهرمان. وبعد أن فرش البساط على الأرض ضرب أوتار عوده بريشة، فإذا بفتاة تغطي وجهها بخمار تدخل مسرعة، وتشرع في الرقص أمامنا.

كان وجهها مختفياً وراء خمار من نسيج رقيق، إلا أن قدميها كانتا عاريتين. عاريتين كانتا قدميها، وقد تحركتا فوق البساط كحمامتين بيضاوين صغيرتين. لم أرَ من قبل شيئاً بمثل هذه الروعة. والمدينة التي تقدم فيها رقصتها لا تبعد عن هنا سوى مسيرة يوم واحد فقط».

عندما سمع الصياد الشاب كلمات روحه، تذكر أن حورية البحر الصغيرة ليست لديها قدمان، ولا يمكنها الرقص. فانتابته رغبة عارمة وحدّث نفسه قائلاً: «إنها مجرد مسيرة يوم واحد، يمكنني بعدها أن أعود لمحبوبتي». ثم ضحك، ونهض واقفاً وسط المياه الضحلة، وخطا ناحية الشاطئ.

وعندما وصل للشاطئ، ضحك ثانية، ومدّ ذراعيه لروحه، فندت عن الروح صيحة فرح عظيمة، وركضت للقائه ثم دخلت إليه، فرأى الصياد الشاب ظله الذي هو جسد روحه ممتداً على الرمال أمامه.

خاطبته روحه قائلة: «دعنا لا نتلكأ، ولنرحل على الفور، فآلهة البحر تتصف بالغيرة، ولديها وحوش تأتمر بأوامرها».

لذا أسرعا بالرحيل، وسارا طوال الليل تحت ضوء القمر، وطوال النهار الذي يليه تحت أشعة الشمس، وعند المساء وصلا لمدينة.

قال الصياد الشاب لروحه: «هل هذه هي المدينة التي ترقص فيها تلك التي حدثتيني عنها؟».

أجابته الروح قائلة: «ليست في هذه المدينة، بل في مدينة أخرى

غيرها. لكن دعنا ندخلها على أي حال». لذا دخلا المدينة، وسارا عبر طرقاتها، وبينما هما يمران في شارع تجار المجوهرات، رأى الصياد الشاب كأسًا رائعة من الفضة معروضة في أحد المحال. فقالت له روحه: «خذ هذه الكأس الفضي، وخبئه».

فأخذ الكأس، وأخفاها في ثنايا ثوبه، وخرجا مسرعين من المدينة.

وبعد أن ابتعدا بمسافة حوالي فرسخ عن المدينة، تجهم الصياد الشاب، وألقى الكأس بعيدًا، وقال لروحه: «لِمَ أمرتني أن آخذ هذه الكأس وأخفيه؟ فهذا عمل يتسم بالشر».

لكن روحه أجابته قائلة: «فلتطمئن، فلتطمئن».

وفي مساء اليوم الثاني، وصلا لمدينة، فسأل الصياد الشاب روحه: «هل هذه هي المدينة التي ترقص فيها تلك التي حكيت لي عنها؟».

فردت روحه قائلة: «ليست في هذه المدينة، بل في مدينة أخرى. لكن دعنا ندخل على أي حال». فدخلا المدينة، وسارا خلال شوارعها حتى مرا بشارع باعة النعال، فرأى الصياد الشاب طفلًا يقف بجوار جرة ماء. قالت له روحه: «اضرب ذلك الطفل». فضرب الطفل حتى بكى، وبعد أن فعل ذلك، أسرعا في طريقهما خارجين من المدينة.

وبعد أن ابتعدا عن المدينة بمسافة فرسخ، غضب الصياد الشاب وقال لروحه: «لِمَ أمرتني أن أضرب ذلك الطفل؟ فهذا عمل يتسم

بالشر».

لكن روحه أجابته قائلة: «فلتطمئن، فلتطمئن».

وفي مساء اليوم الثالث، وصلا لمدينة فقال الصياد الشاب لروحه: «هل هذه هي المدينة التي ترقص فيها تلك التي حكيت لي عنها؟».

فأجابت روحه قائلة: «ربما تكون هذه هي المدينة. لذا دعنا ندخلها».

فدخلا، وسارا عبر شوارعها، لكن الصياد الشاب لم يجد النهر، ولا الخان القائم إلى جواره في أي مكان. ورمقه سكان المدينة بفضول، فشعر بالخوف وقال لروحه: «دعنا نرحل من هنا، فالراقصة صاحبة الأقدام البيضاء ليست هنا».

لكن روحه أجابته: «لا بل دعنا نبقى؛ فالليل حالك الظلام، وسيتواجد اللصوص على الطريق».

فجلس في السوق ليرتاح، وبعد فترة من الوقت مر تاجر على رأسه قلنسوة، ويرتدي عباءة من أقمشة التتار، ويحمل مصباحًا من قرن حيوان مفرغ معلق في طرف عود من القصب. فقال له التاجر: «لِمَ تجلس هنا في السوق، وقد أغلقت كل المحال وجُمعت البضائع؟».

فأجابه الصياد الشاب قائلًا: «لا أجد أي خان بهذه المدينة، وليس لديَّ أقارب يؤونني».

فقال التاجر: «ألسنا جميعًا أقرباء؟ ألم يخلقنا إله واحد؟ لذا تعال

معي، فلديَّ غرفة للضيوف».

فقام الصياد الشاب، وتبع التاجر إلى منزله. وعندما مر عبر بستان من الرمَّان، ودخل البيت، وجاءه التاجر بماء الورد في صحن من النحاس الأحمر، ليغسل يديه، كما أتاه بطبق من الشمام الناضج، كي يروي عطشه، ووضع أمامه طبقًا به أرز، وقطعة من لحم الجدي المشوي.

وبعد أن انتهى من تناول الطعام، قاده التاجر لغرفة الضيوف، وطلب منه أن ينام، وينال قسطًا من الراحة. فشكره الصياد الشاب، وقبّل الخاتم الذي في يده، ثم ألقى بنفسه على بساط من شعر الماعز المصبوغ، وتدثر بغطاء أسود اللون من صوف الحملان، قبل أن يستغرق في النوم.

قبل بزوغ الفجر بثلاث ساعات، وبينما الليل لا يزال حالكًا، أيقظته روحه وقالت له: «انهض، واذهب لغرفة التاجر. امض لحجرته التي ينام بها، واذبحه وخذ ذهبه، فنحن بحاجة إليه».

فنهض الصياد الشاب وتسلل إلى غرفة التاجر. وعلى قدمي التاجر كان هناك سيف معقوف، وفوق صينية إلى جواره كانت هناك تسعة أكياس من الذهب. فمد يده ناحية السيف، وعندما لمسه استيقظ التاجر فزعًا، وقفز واقفًا، وأمسك بالسيف، وهو يصيح في الصياد الشاب قائلًا: «هل ترد الإحسان بالشر، وتجازيني على معروفي معك بإراقة دمي؟».

فقالت الروح للصياد الشاب: «اضربه.» فضربه، وأفقده الوعي، ثم سرق أكياس الذهب التسعة، وفرّ هاربًا عبر بستان الرمّان ميممًا وجهه شطر نجم الصباح.

وعندما ابتعدا على مسافة فرسخ من المدينة، ضرب الصياد الشاب صدره بقبضته، وقال لروحه: «لِمَ أمرتني أن أذبح التاجر، وأسرق ذهبه؟ أنت روح شريرة بلا شك».

لكن روحه ردت قائلة: «فلتطمئن، فلتطمئن».

صاح الصياد الشاب قائلًا: «لا، لن أطمئن. فأنا أكره كل الأفعال التي جعلتني أقترفها، وأكرهكِ أنتِ أيضًا. وأنا آمرك أن تخبريني لِمَ فعلتِ كل هذا؟».

أجابت روحه قائلة: «عندما أرسلتني طليقة في هذا العالم، لم تعطني قلبًا، لذا تعلمت أن أفعل كل هذه الأشياء، وأن أحبها».

غمغم الصياد الشاب قائلًا: «ما الذي تقولينه؟».

فأجابت روحه: «أنت تعرف. أنت تعرف جيدًا. هل نسيت أنك لم تمنحني قلبًا؟ لا أعتقد ذلك. لذا لا تتعب نفسك ولا تتعبني، لكن اطمئن، فلا يوجد هناك أي ألم لا تستطيع التخلص منه، ولا أي سعادة لا يمكنك التمتع بها».

وعندما سمع الصياد الشاب هذه الكلمات ارتعد، وقال لروحه: «لا، فأنت محض شر، وجعلتني أنسى محبوبتي، وأغويتني بالمغريات،

ووضعت قدمي على طريق الضلال».

فأجابت روحه قائلة: «أنت لم تنس أنك عندما أطلقتني في هذا العالم لم تهبني قلبًا. تعال، دعنا نذهب لمدينة أخرى، كي نقضي وقتًا ممتعًا، فمعنا تسعة أكياس من الذهب».

لكن الصياد الشاب أمسك بأكياس الذهب التسعة، وطرحها أرضًا، ودهسها بقدميه.

صاح قائلًا: «لا، فلا شأن لي بكِ بعد الآن، ولن أرحل معكِ لأي مكان. لكن كما أطلقتك مرة من قبل، سأطلقك الآن بعيدًا، فلم أجن منك أي نفع». ثم أولى القمر ظهره، وبالسكين الصغير ذو المقبض المغطى بجلد الأفعى الأخضر، حاول أن يقطع ظله الذي هو جسد الروح من حول قدميه.

لكن روحه لم تبتعد عنه، ولم تأبه لأوامره، بل قالت له: «لم يعد هناك جدوى من السحر الذي علمتك إياه الساحرة، فلا يمكنني أن أرحل عنك، ولم يعد بمقدورك أن تتخلص مني. فبوسع المرء أن يطلق سراح روحه مرة واحدة في العمر، لكن من يستعيدها ثانية، عليه أن يحتفظ بها للأبد. فهذا هو عقابه وهذه هي مكافأته».

شحب الصياد الشاب، وكور قبضتيه وهو يصيح قائلًا: «إنها ساحرة مخادعة؛ لأنها لم تخبرني بذلك».

قالت روحه: «لا، بل هي مخلصة لمَن تعبده، ومَن ستظل في

خدمته للأبد».

وعندما عرف الصياد الشاب إنه لم يعد بمقدوره التخلص من روحه، وأنها روح شريرة سترافقه على الدوام، انهار على الأرض باكيًا بمرارة.

وعندما أشرق النهار، نهض الصياد الشاب وقال لروحه: «سأقيد يدي، حتى لا أنفذ ما تأمرينني به، وسأطبق شفتي كي لا أنطق بكلماتك، وسأعود إلى حيث تعيش محبوبتي. إلى البحر سأعود، وإلى الخليج الصغير حيث اعتادت أن تجلس، وتغني، سأذهب وأناديها، وسأخبرها بالشرور التي اقترفتها، وبالشرور التي جلبتها علي».

حاولت روحه أن تغريه قائلة: «من هي محبوبتك تلك التي ترغب في العودة إليها؟ ففي العالم كثيرات أجمل منها. فهناك فتيات راقصات في مدينة السامرة، يتقن رقصات جميع أنواع الطيور والوحوش. أقدامهن مصبوغة بالحناء، وفي أيديهن أجراس صغيرة من النحاس الأحمر، وتتعالى أثناء الرقص ضحكاتهن الرائقة كالماء الصافي. تعال معي وسأريك إياهن. فما الداعي لانشغالك بالتفكير في الخطايا؟ ألم تخلق أطايب الطعام للآكلين؟ هل هناك سم في عذب الشراب؟ لا تشغل بالك، لكن تعال معي لمدينة أخرى. فهناك مدينة صغيرة بالقرب من هنا، بها بستان من أشجار التوليب، ويعيش في هذا البستان الجميل طواويس بيضاء وطواويس لها صدور زرقاء، وعندما يفردون ذيولهم، تحت وهج الشمس، تصير كأقراص العاج، وأقراص

الذهب. أما تلك التي تتولى إطعامهم، فهي ترقص كي تسرّي عنهم، وأحيانًا ترقص على يديها، وفي أوقات أخرى ترقص على قدميها. عيناها مرسومتان بالكحل، وفتحتا أنفها كجناحي السنونو، ومن إحداهما تتدلى زهرة على خطاف منحوتة من حبة لؤلؤ. يتعالى ضحكها في رقصها، وتصدر الحلقات الفضية المحيطة بكاحليها رنينًا كأجراس فضية صغيرة. لذا فلا تشغل نفسك، وتعال معي إلى هذه المدينة».

لكن الصياد الشاب لم يجب روحه، بل أطبق شفتيه بختم من الصمت، وبحبل محكم قيّد يديه، وارتحل عائدًا من حيث أتى، إلى الخليج الصغير حيث اعتادت محبوبته أن تغني. وحاولت روحه إغواءه طوال الطريق، لكنه لم يجبها، ولم يقترف أي من الشرور التي حرضته عليها؛ فعظيمة كانت قوة الحب الذي يحمله داخله.

وعندما وصل لشاطئ البحر، حلّ القيد عن يديه، وخلع ختم الصمت عن شفتيه، ونادى حورية البحر الصغيرة. لكنها لم تجب نداءه، بالرغم من أنه ظل يناديها طوال اليوم، ويتوسل إليها.

وسخرت منه روحه قائلة: «أنت بالقطع لم تنل من حبك هذا سوى أقل القليل من السعادة. وها أنت كمن يصب الماء في إناء مكسور ساعة الجفاف. فأنت تهب ما لديك، ولا تتلقى أي شيء في المقابل. من الأفضل لك أن تأتي معي، فأنا أعرف أين يقع وادي الملذات، وأعرف ما يمكن فعله هناك».

لكن الصياد الشاب لم يجب روحه، بل بنى لنفسه كوخًا من

أعواد القصب المجدول، في شق داخل صخرة وسكن هناك لمدة عام كامل. وظل ينادي حورية البحر في كل صباح، ويكرر النداء عند الظهيرة، بينما اسمها لا يفارق شفتيه أثناء الليل. إلا أنها لم تصعد أبدًا من أعماق البحر كي تلقاه، ولم يجدها في أي مكان في البحر بالرغم من أنه بحث عنها بين الكهوف، ووسط المياه الخضراء، وفي البرك التي يخلفها وراءه المد، وفي الحفر الغائرة في أعمق الأعماق.

وما فتئت روحه تغويه بالشرور، وتوسوس له بأفظع الأشياء. إلا أنها لم تتمكن منه؛ فقد بلغت قوة حبه أعظم الدرجات.

وبعد انقضاء عام، فكرت الروح قائلة لذاتها: «لقد أغويت سيدي بالشرور، لكن حبه أشد قوة مني. سأحاول إذن إغراءه الآن بالخير، فربما يأتي معي ساعتها».

لذا حادثت الروح الصياد الشاب وقالت: «لقد حكيت لك عن مباهج ومسرات العالم، لكنك لم تعرني سمعًا، فلتسمح لي الآن أن أحكي لك عن آلام العالم، فلعلك تستمع لي ساعتها. ففي الحقيقة، الألم هو سيد هذا العالم، ولا يفلت أحد من شباكه. هناك البعض الذين لا يجدون ما يسترون به أجسادهم، وهناك من لا يجدون قوت يومهم. هناك أرامل ترتدين فاخر الثياب، وأرامل تكسوهن الأسمال. كما يهيم المجذومون وسط المستنقعات جيئة وذهابًا، وقد قست قلوبهم ضد بعضهم البعض، ويسرح الشحاذون بين الطرقات بجيوب خاوية. ووسط شوارع المدن تسير المجاعات، وعلى بواباتها تربّع الطاعون.

تعال. دعنا نذهب كي نحاول إصلاح هذه الأشياء ونمحوها من الوجود. فلِمَ تتلكأ هنا مناديًا محبوبتك، بينما هي لا تجيب نداءك؟ وما هو الحب الذي توليه كل هذا الاهتمام؟».

لكن الصياد الشاب لم يجبها، فقد بلغت قوة حبه أعظم الدرجات. وظل ينادي حورية البحر في كل صباح، ويكرر النداء في الظهيرة، ولا يفارق اسمها شفتيه في المساء. لكنها لم تصعد أبدًا من أعماق البحر لتلتقيه، ولم يجدها في أي مكان من البحر، بالرغم من أنه بحث عنها في أنهار البحر، ووديانه الكائنة تحت الأمواج، وفي البحر الذي يحوله الليل للون الأرجواني، وفي البحر الذي يخلفه الفجر بلون الرماد.

وبعد انقضاء العام الثاني، حدّثت الروح الصياد الشاب ليلًا، بينما هو جالس وحده في منزله المصنوع من أعواد القصب المجدول قائلة: «ها أنا قد أغويتك بالشرور، وأغريتك بالخير، لكن حبك أشد قوة مني. لذا فلن أغريك مرة أخرى، لكنني أتوسل إليك أن تسمح لي بأن أدخل قلبك، كي نصير كيانًا واحدًا، كما كان الحال من قبل».

قال الصياد الشاب: «بالتأكيد يمكنك الدخول، فلا بد أنك قد عانيت الكثير في الأيام التي همتِ فيها في هذا العالم، دون قلب».

صاحت روحه قائلة: «وا أسفاه! لا يمكنني العثور على مكان أدخل منه، فقلبك هذا مطوق بالحب من كل الجوانب».

قال الصياد الشاب: «بودي لو كنت أستطيع مساعدتك».

وبينما هو يتحدث، ارتفعت من البحر صرخة حداد عظيمة، تشبه تلك التي يسمعها البشر عندما يموت واحد من أهل البحر. فقفز الصياد الشاب واقفًا، وترك كوخه المبني من القصب المجدول، وركض متجهًا إلى الشاطئ. تسارعت الأمواج السوداء ناحية الشاطئ، جالبة معها حملًا أنصع بياضًا من الفضة. بيضاء كانت مثل زبد البحر، وكالزهرة تقاذفتها الأمواج. تلقتها الأمواج المتكسرة من الموج الأضخم، ومن الموج المتكسر تلقاها الزبد حتى استقبلها الشاطئ، وعند قدميه رأى الصياد الشاب جسد حورية البحر الصغيرة ممددًا.

بكى كمن يعتصره الألم اعتصارًا، وألقى بنفسه إلى جوارها، مقبِّلًا الشفتين الحمراوين الباردتين، ومداعبًا كهرمان شعرها المبلل. ألقى بنفسه على الرمال بجانبها، وهو يبكي كمن يرتعد فرحًا، وبين ذراعيه السمراوين ضمها إلى صدره. باردة كانت شفاهها، لكنه قبّلها. ومالح كان شهد شعرها، إلا أنه تذوقه بفرحة مريرة. قبّل الجفنين المغمضين، فكان رذاذ البحر المتناثر على محجريها أقل ملوحة من دموع عينيه.

إلى الكائن الذي فارقته الحياة أسرّ باعترافه. وفي صدفتي أذنيها، صب نبيذ حكايته القاسي. أحاط عنقه بيديها الصغيرتين، وبأنامله لمس عنقها النحيل كعود من قصب. مريرة، مريرة كانت سعادته، وبفرح غريب امتلأ ألمه.

اقترب البحر الأسود أكثر، وعلا نواح الزبد الأبيض كالمجذوم.

بمخالب من زبد أبيض تحسس البحر الشاطئ، ومن قصر ملك البحار علت صيحة نواح أخرى، وبعيدًا وسط البحر، نفخ الترايتون أبواقهم بصوت أجش.

قالت روحه: «فلتفر بعيدًا، فالبحر يزداد اقترابًا، ولو بقيت هنا سيقتلك. اهرب بعيدًا، فأنا أشعر بالخوف، حيث إن قلبك مغلق في وجهي لِمَا يحيطه من عظيم الحب. فر إلى مكان آمن، فبالتأكيد لن ترسلني دون قلب إلى عالم آخر؟».

لكن الصياد الشاب لم يستمع إلى روحه، بل نادى حورية البحر الصغيرة وقال: «الحب أفضل من الحكمة، وأثمن من كل الثروات، وأجمل من أقدام بنات البشر. النيران لا يمكنها أن تدمره، والماء لا يقدر أن يخمده. لقد ناديتك فجرًا، فلم تجيبي ندائي. أسمعت القمر اسمكِ، إلا أنك لم تبالي بندائي. فبخبث رحلتُ عنكِ، ووراء ألمي سعيتُ بنفسي. لكن حبك ظل ملازمًا لي، وطوال الوقت بقي قويًا، ولم يهزمه شيء، بالرغم من أنني واجهت الشر والخير. والآن ها أنت قد فارقت الحياة، وقطعًا عليَّ أن أرحل، وأفارقها معك».

وتوسلت إليه روحه كي يهرب إلا أنه رفض، فقد بلغت قوة حبه من الدرجات أعلاها. واقترب البحر وغمره بأمواجه، وعندما أدرك أن نهايته وشيكة، لثم بجنون شفتي حورية البحر الباردتين، وانفطر قلبه بداخل صدره. وعند انكسار القلب من شدة الحب، وجدت الروح مدخلًا، فولجت وعادت معه كيانًا واحدًا، كما كان الحال من قبل. ثم غمر البحر الصياد الشاب بأمواجه.

وفي الصباح خرج الكاهن ليبارك البحر الذي كان مضطربًا هائجًا، ورافقه الرهبان، والعازفون، وحاملو الشموع، وحاملو المباخر، وجمع عظيم من الناس.

وعندما وصل الكاهن للشاطئ، شاهد جسد الصياد الشاب الغارق ممددًا وسط الزبد، وقد احتضن بين ذراعيه جسد حورية البحر الصغيرة. فتراجع للخلف متجهمًا، ورسم علامة الصليب وصاح قائلًا: «لن أبارك البحر، ولا أي شيء يعيش فيه. فلعونون هم أهل البحر، وملعونون هم أولئك الذين يتعاملون معهم. أما هذا الذي تخلى عن الرب مقابل عشقه، ويرقد هنا مع معشوقته، وقد نفذ فيهما قضاء الرب، فخذوا جسده وجسد خليلته وادفنوهما في ركن من حقل القصارين (10)، ولا تضعوا فوقهما علامة، ولا إشارة من أي نوع؛ كي لا يعرف أحد مكان دفنهما. فلعونين كانا في حياتهما، وملعونين سيبقيان في مماتهما أيضًا».

(10) القصارون هم الذين ينزعون الأوساخ عن صوف الغنم.

وفعل الناس كما أمرهم، وفي أحد أركان الحقل، حيث لا تنمو أي أعشاب طيبة حفروا حفرة عميقة، ودفنوا الأجساد التي فارقتها الحياة.

وعند انقضاء العام الثالث، وفي أحد الأيام الذي كان يوم عيد، توجه الكاهن إلى الكنيسة، كي يري الناس جراح الرب، ويحادثهم عن غضبه.

وعندما ارتدى ثوبه، وولج للداخل، وانحنى أمام المذبح، لاحظ أن هناك زهورًا غريبة، لم يشاهد لها مثيل من قبل، تغطي المذبح. غريبة كانت، وجمالها خلّاب. أثار جمالها فيه القلق، وكان عبيرها في أنفه فواحًا. غمرته السعادة دون أن يعرف لشعوره ذاك سببًا.

وبعد أن فتح الصندوق، وعطّر وعاء القربان المقدس بالبخور، وأظهر للناس الخبز المقدس، ثم أخفاه خلف الأستار مرة أخرى، بدأ يحدّث الناس، وكان ينتوي أن يكلمهم عن غضب الرب. إلا أن جمال الزهور البيضاء أقلقه، ورائحتها العطرة عالقة في أنفه، فتكونت على شفتيه كلمات أخرى، فلم يحدثهم عن غضب الرب، بل عن الرب الذي هو محبة. ولم يعرف لِمَ حدّثهم بذلك.

وعندما انتهى من حديثه بكى الناس، وعاد الكاهن لغرفته وعيناه مليئة بالدموع. وعندما دخل الشماسون ليبدلوا ثوبه، وخلعوا عنه قميصه الأبيض الطويل، وحزامه، وأخذوا الذراعة والبطرشيل، ظل واقفًا، وكأنه في حلم. وبعد إن انتهوا من إبدال ملابسه، نظر لهم قائلًا: «ما تلك الزهور التي على المذبح، ومن أين أتت؟».

فأجابوه قائلين: «لا ندري أي زهور هي، لكنها قطفت من أحد أركان حقل القصارين». فارتعد الكاهن وعاد إلى منزله ليصلي.

وفي اليوم التالي، بينما لا يزال الوقت فجرًا، ذهب مع الرهبان والموسيقيين، وحاملي الشموع، وحاملي المباخر، وحشد عظيم من الناس، حتى وصلوا للشاطئ، وبارك البحر، وكل الأشياء التي تعيش

فيه. والعون أيضًا باركهم، وبارك الكائنات الصغيرة التي ترقص في الغابة، والكائنات التي تسترق النظر من بين أوراق الشجر بعيونها اللامعة. كل المخلوقات في عالم الرب باركها، وامتلأ الناس سعادة وعجبًا. لكن لم تنمو بعدها أبدًا زهور من أي نوع في ركن حقل القصارين، وظل الحقل مجدبًا كما كان طوال عهده من قبل. ولم يعد أهل البحر يأتون للخليج كما كانت عادتهم، فقد ارتحلوا لمكان آخر في البحر.

* * *

ابن النجوم

في ذات يوم، كان اثنان من الحطابين الفقراء يقطعان طريقهما، عبر غابة الصنوبر الضخمة عائدين لمنزليهما. كان الفصل شتاءً، والليل قارس البرودة. تكدّس الثلج في طبقة سميكة فوق الأرض، وعلى أفرع الأشجار. وفي مرورهما، تحطمت الأغصان والأفرع الصغيرة القريبة منهما على كلا الجانبين بفعل الصقيع. وعندما وصلا إلى الشلال الذي ينهمر مجراه من أعلى الجبل، وجداه ساكنًا، وقد تعلق في الهواء؛ فقد لثمه ملك الجليد.

كان البرد قارسًا، لدرجة أن الطيور والحيوانات لم تحتمل الأمر.

زمجر الذئب معبرًا عن امتعاضه، وهو يعرج وسط الأدغال، وذيله بين ساقيه، وقال: «هذا الجو بشع للغاية. لِمَ لا تفعل الحكومة شيئًا بشأنه؟».

«صو! صو! صو!»، غردت طيور الحسون الخضراء، وقالت: «الأرض العجوز فارقت الحياة، وقد تمددت في كفنها الأبيض».

تهامست طيور القمري فيما بينها، وقالت: «الأرض ستتزوج، وهذا ثوب زفافها». كانت أقدامها الصغيرة وردية اللون، تعاني من قرصة البرد، إلا أنها شعرت أنه من واجبها أن تتبنى وجهة نظر رومانسية حيال الموقف.

زمجر الذئب قائلًا: «هراء! أقول لكم إن كل هذا بسبب الحكومة،

ولو لم تصدقوني فسألتهمكم!».

كان الذئب يتمتع بعقلية عملية للغاية، ولم تكن تنقصه القدرة على الجدال.

أما نقار الخشب، الذي كان فيلسوفًا بالفطرة فقال: «بالنسبة لي، فأنا لا أهتم بالنظريات المعقدة لتفسير الأمور. لحقيقة الوضع تبقى على ما هي عليه، وفي هذه اللحظة يبقى الجو قارس البرودة».

وقد كان قارس البرودة بالفعل. ظلت السناجب الصغيرة التي تعيش في شجرة الشوح الطويلة تحك أنوفها بأنوف بعض، كي تحافظ على دفء أجسادها. وتكورت الأرانب داخل جحورها، ولم تطل حتى كي تلقي نظرة بالخارج. بدا أن طيور البوم القرناء الكبيرة وحدها هي من يستمتع بالطقس. تصلّب ريشها بفعل الصقيع، إلا أنها لم تمانع، وأدارت عيونها الصفراء الكبيرة في محجريها، ونادت بعضها بعضًا عبر الغابة قائلة: «تو- ويت! تو-هو! تو-ويت! تو-هو! يا له من طقس رائع!».

استمر الحطّابان في طريقهما، وهما ينفخان على أصابعهما بقوة، ويضربان الأرض التي كستها الثلوج بأحذيتهما الضخمة المقواة بالحديد. وفي مرة، غاصا داخل كومة عميقة من الثلوج المتراكمة، وخرجا منها والبياض يكسوهما مثل الطحانين وهم يعملون على الرحى. وفي مرة أخرى انزلقا على الجليد الصلب المصقول، إذ تجمدت المياه في المستنقعات، فسقطت حزم عصيهما، واضطرا لجمعها وربطها مرة

ثانية. وفي مرة ظنّا أنهما قد ضلّا الطريق، وانتابهما رعب شديد، فقد كانا يدركان أن الثلوج تقسو على من ينام في أحضانها. لكنهما وضعا ثقتهما في القديس مارتن الذي يرعى جميع المسافرين، وعادا من حيث أتيا، وهما يسيران بحذر، حتى وصلا أخيرًا لأطراف الغابة، وشاهدا بعيدًا في أسفل الوادي أنوار القرية التي يقطنان بها.

غمرتهما فرحة عارمة لنجاتهما، فضحكا بصوت مرتفع، وبدت الأرض لهما وكأنها زهرة من فضة، والقمر زهرة من ذهب.

إلا أن الحزن انتابهما بعد أن فرغا من الضحك، فقد تذكرا فقرهما وقال أحدهما للآخر: «لماذا نمرح في حين أننا نرى أن الحياة خُلقت للأثرياء، لا للفقراء من أمثالنا؟ كان من الأفضل لنا أن نموت متجمدينْ في الغابة، أو أن يهاجمنا أحد الوحوش البرية فيقتلنا».

رد رفيقه قائلًا: «حقًّا يحظى البعض بحظٍ وافر، بينما يحظى البعض الآخر بأقل القليل، وقد قسم الظلم العالم بحيث لا ينال الناس حظوظًا متساوية من أي شيء سوى الحزن»».

وبينما هما يشكيان لبعضهما البعض سوء الحظ، حدث شيء غريب. سقطت من السماء نجمة جميلة فائقة اللمعان. انزلقت من جانب السماء، متجاوزة باقي النجوم في طريقها. وبينما هما يشاهدانها متعجبين، غاصت وراء مجموعة من أشجار الصفصاف الواقعة بجوار حظيرة خراف صغيرة، على مرمى حجر منهما.

صاحا قائلين: «ها هي عصا من الذهب، ستكون من نصيب من

يجدها»، وركضا تجاهها، فقد كانا متحمسين للعثور على الذهب.

ركض واحد منهما أسرع من رفيقه فسبقه، وشق طريقه وسط أشجار الصفصاف، حتى خرج من الجانب الآخر. ويا للعجب! كان هناك بالفعل شيء بلون الذهب، يرقد وسط بياض الثلج. لذا فقد أسرع تجاهه وانحنى ليمسك به، فوجد معطفاً، صنع من نسيج من ذهب مطرز بنجوم غريبة، وقد طوي عدة مرات. فصاح منادياً رفيقه، مخبراً إياه أنه وجد الكنز الذي سقط من السماء، وعندما وصل رفيقه جلسا على الثلج، وحلّا ثنايا المعطف كي يتقاسما قطع الذهب. لكن يا للأسف! لم يكن هناك أي ذهب أو فضة، ولا أي كنز من أي نوع. كل ما كان هناك فقط هو طفل صغير مستغرق في النوم.

قال أحدهما للآخر: «هذه نهاية مريرة لآمالنا، ولا حظ لدينا على الإطلاق. فما فائدة الطفل للمرء؟ دعنا نتركه هنا، ونمضي في طريقنا. فنحن فقراء، ولدينا أطفال من صلبنا، لا يمكننا أن نعطي قوتهم لغيرهم».

لكن رفيقه أجاب قائلاً: «لا، فهذا أمر في غاية الشر، أن نترك الطفل ليلقى حتفه هنا وسط الثلوج. وبالرغم من أنني فقير مثلك، ولدي الكثير من الأفواه التي علي إطعامها، وقوتنا قليل، لكنني سأصطحبه معي للمنزل وسترعاه زوجتي».

ورفع الطفل بحرص بالغ، ولفّه بالمعطف، كي يقيه البرد القارس.

ثم هبط التل، ومضى في طريقه إلى القرية، بينما رفيقه يتعجب من حماقته ولين قلبه.

وعندما وصلا للقرية، قال له رفيقه: «أنت معك الطفل، إذن فلتعطني المعطف. فمن العدل أن نتقاسم».

لكنه رد قائلًا: «لا، فالمعطف ليس لي، ولا لك، بل هو ملك للطفل فقط». ثم ودّعه، ومضى في طريقه لبيته هو، وطرق الباب.

وعندما فتحت زوجته الباب، ورأت أن زوجها قد عاد بسلام، أحاطت عنقه بذراعيها وقبّلته، وأنزلت عن ظهره حمولته من الحطب، ونفضت الثلج عن حذائه، ودعته للدخول.

لكنه قال لها: «لقد وجدت شيئًا في الغابة، وجلبته لك معي كي تقومي برعايته». ولم يحرك ساكنًا من عتبة الباب. صاحت قائلة: «ما هو؟ أرني إياه، فالبيت خاوٍ، ونحن بحاجة للكثير من الأشياء». عندها سحب المعطف للخلف، وأظهر لها الطفل المستغرق في النوم.

غمغمت قائلة: «وا أسفاه، أيها الرجل الطيب! أليس لدينا أطفال من صلبنا، فما حاجتنا إذن لأن تجلب أحد أبناء الجنيات ليشاركنا الدار؟ ومن يعلم لو كان سيجلب علينا سوء الطالع؟ وكيف سنرعاه؟». وانتابها الغضب تجاهه.

أجابها قائلًا: «لا، بل هو ابن النجوم» وحكى لها عن الطريقة الغريبة التي عثر بها عليه.

إلا أنها لم تهدأ، بل سخرت منه وتحدثت بغضب قائلة: «أطفالنا لا يجدون قوتهم، فهل سنطعم ابن شخص آخر؟ فمن يقوم برعايتنا نحن؟ ومن يهبنا الطعام؟»».

رد قائلًا: «لا، بل الرب يرعى حتى العصافير ويطعمها»».

سألته قائلة: «ألا تموت العصافير جوعًا في الشتاء؟ وألسنا الآن في فصل الشتاء؟»».

فلم يحر الرجل جوابًا، ولم يبرح ساكنًا عن عتبة الدار.

هبّت ريح شديدة البرودة قادمة من الغابة عبر الباب المفتوح، وجعلتها ترتعش. ارتعدت وهي تقول له: «هلا أغلقت الباب؟ فهناك ريح قارسة البرودة تهب في أرجاء المنزل، وأنا أشعر بالبرد»».

سألها قائلًا: «ألا تهب ريح باردة دومًا في البيوت التي بها قلوب قاسية؟»، فلم تجبه المرأة، واقتربت أكثر من النار المشتعلة في المدفأة.

وبعد فترة من الوقت، استدارت ونظرت له، وقد امتلأت عيناها بالدموع. فدخل مسرعًا، ووضع الطفل بين ذراعيها، فقبّلته، ووضعته في فراش صغير، حيث يرقد أصغر أبنائهما. وفي اليوم التالي أخذ الحطاب المعطف الغريب المصنوع من الذهب، ووضعه في صندوق ضخم، كما أخذت زوجته قلادة من الكهرمان كانت معلقة في عنق الطفل، ووضعتها في الصندوق هي الأخرى.

لذا نشأ ابن النجوم مع أبناء الحطاب، وشاركهم نفس المائدة،

وكان رفيقهم في اللعب. وفي كل عام كان يزداد حسنًا، حتى امتلأ كل سكان القرية عجبًا. فبينما كانوا هم أصحاب بشرة داكنة، وشعر أسود، كان هو أبيضًا، ورقيقًا كالعاج المنحوت، وخصلات شعره بلون قلب زهر النرجس البري. وشفتاه كذلك كانتا بلون الورد الأحمر، وعيناه كزهر بنفسج على ضفة نهر رائق المياه. وكان ممشوقًا كالنرجس، في حقل لم يأتِ إليه مَن يحصده.

إلا أن جماله كان شرًّا. فقد امتلأ بالكِبر والقسوة والأنانية. كان يحتقر أبناء الحطّاب، وباقي أطفال القرية، قائلًا إنهم من أصل وضيع، بينما هو من النبلاء، حيث إنه ابن النجوم، وجعل نفسه سيدًا عليهم، وأطلق عليهم لقب الخدم. لم تكن لديه أي شفقة على الفقراء، ولا المكفوفين، أو أولئك المصابين بعاهة، أو المنكوبين بأي شكل من الأشكال.

بل كان يقذفهم بالحجارة، ويطاردهم على الطريق، آمرا إياهم أن يذهبوا ليشحذوا في مكان آخر، حتى لم يعد يتردد على القرية لطلب الصدقات سوى الخارجين على القانون. وفي الواقع فقد كان مفتونًا بالجمال. وكان يسخر من الضعفاء، وأصحاب الطالع السيئ، ويهزأ بهم. وكان يعشق صورته. وفي الصيف عندما تسكن الريح، كان يرقد إلى جوار البئر الكائن في بستان الكاهن، وينظر داخله إلى ملامح وجهه الرائعة، ويضحك لما يلقاه من متعة في تأمل جماله.

وكثيرًا كان الحطّاب وزوجته يوبخانه قائلين: «نحن لم نعاملك كما

تتعامل أنت مع أولئك الذين هم في ظروف بائسة، وليس لديهم من يغيثهم. لِمَ أنت قاس لهذا الحد مع جميع من هم بحاجة إلى الشفقة؟».

وكثيرًا ما كان الكاهن العجوز يرسل في طلبه، ويحاول أن يعلمه كيف يحب الكائنات الحية الأخرى فيقول له: «الذبابة شقيقتك فلا تؤذها. والطيور البرية التي تسرح في الغابة لها حريتها، فلا تصدها لمجرد المتعة. وخلق الرب الدودة التي لا تبصر، وحيوان الخلد، ولكل مكانه. فَمَن تكون أنت لتجلب الألم للعالم الذي خلقه الرب؟ فحتى المواشي في الحقول تمجد اسمه».

لكن ابن النجوم لم يسمع تلك الكلمات، بل كان يعبس، ويستهين بما يقال، ثم يعود ليقود رفاقه. وكان رفاقه يتبعونه؛ فقد كان جميل المحيا، وسريع الركض، وبمقدوره أن يرقص، وينفخ الناي، ويعزف الموسيقى. وأينما قادهم ابن النجوم تبعوه، وكانوا ينفذون ما يأمرهم به ابن النجوم. وعندما فقأ أعين حيوان الخلد بعود حاد من القصب ضحكوا، كما ضحكوا أيضًا عندما قذف المجذوم بالحجارة. وهكذا قادهم في كل الأمور، وازدادت قلوبهم قسوة مثله تمامًا.

وفي يوم من الأيام، مرت بالقرية شحاذة عجوز، ذات ملابس مهلهلة، وممزقة، وأقدامها دامية من وعورة الطريق الذي ارتحلت عبره، وكانت في محنة بالغة. جلست منهكة تحت شجرة كستناء كي تستريح.

لكن عندما رآها ابن النجوم قال لرفاقه: «انظروا! فهناك شحاذة

قذرة، جالسة أسفل تلك الشجرة الخضراء الجميلة. تعالوا، ودعونا نبعدها عن هنا، فهي قبيحة وسيئة الطالع».

لذا اقترب منها، وقذفها بالحجارة وهزأ بها، فنظرت إليه بعينين ملأهما الرعب، ولم تبعد نظرها عنه. وعندما رأى الحطّاب- الذي كان يقطع الخشب في مكان قريب- ما يفعله ابن النجوم، أسرع إليه ووبّخه، وقال: «من المؤكد أنك قاسي القلب، ولا تعرف الرحمة. فما الشر الذي اقترفته هذه المرأة المسكينة في حقك، كي تعاملها بهذه الطريقة؟»».

فاصطبغ وجه ابن النجوم بالحمرة من شدة الغضب، وضرب الأرض بقدمه وهو يقول: «ومَن أنت حتى تسألني عما أفعله؟ فأنا لست ابنك حتى أطيع أوامرك»».

ردّ الحطّاب قائلًا: «ما قلته صحيح، إلا أنني عاملتك برحمة، وأشفقت عليك، عندما وجدتك في الغابة»».

وعندما سمعت المرأة هذه الكلمات أفلتت منها صرخة عالية، وسقطت مغشياً عليها. فحملها الحطّاب لبيته واعتنت بها زوجته. وعندما استعادت وعيها، وضعا أمامها الطعام والشراب، وطلبا منها أن تستريح.

لكنها رفضت أن تأكل أو تشرب، بل قالت للحطاب: «ألم تقل أنك عثرت على الطفل في الغابة؟ وألم يكن ذلك منذ عشر سنوات مضت؟»».

فأجابها الحطّاب قائلًا: «بلى، فقد وجدته في الغابة منذ عشر سنوات».

صاحت قائلة: «وما العلامات التي وجدتها معه؟ ألم تكن هناك حول عنقه قلادة من الكهرمان؟ وألم يكن ملفوفًا بمعطف من نسيج من ذهب مطرز بالنجوم؟».

أجابها الحطّاب: «حقًّا، كان كما ذكرته تمامًا». ثم أخرج المعطف وقلادة الكهرمان من الصندوق، كي يريها إياهما.

وعندما رأتهما بكت من شدة الفرح، وقالت: «إنه ابني الصغير الذي فقدته في الغابة. أتوسل إليك أن ترسل في طلبه سريعًا، فقد جبت العالم كله بحثًا عنه».

لذا خرج الحطاب وزوجته منادين على ابن النجوم وقالا له: «ادخل البيت، فهناك ستجد والدتك في انتظارك».

لذا ركض للداخل، وقد غمرته مشاعر العجب والسعادة البالغة. لكن عندما شاهد من تجلس في انتظاره، ضحك بسخرية قائلًا: «أين والدتي؟ فلا أرى هنا سوى هذه الشحاذة الحقيرة».

فأجابته المرأة: «أنا والدتك».

صاح ابن النجوم بغضبٍ قائلًا: «لا بد وأنك مجنونة حتى تقولي هذا. أنا لست ابنك. فما أنت إلا شحاذة قبيحة، ترتدي الأسمال. لذا ارحلي من هنا، ولا تدعيني أرى وجهك القبيح مرة أخرى».

تهاوت على ركبتيها مادة ذراعيها نحوه، وصاحت قائلة: «لا، بل

أنت بالفعل ابني الصغير الذي ولدته في الغابة. لقد خطفك اللصوص مني، وتركوك كي تموت». ثم غمغمت قائلة: «لكنني تعرفتُ عليك عندما رأيتك، كما تعرفت على العلامات التي كانت معك: المعطف المصنوع من نسيج من ذهب، وقلادة الكهرمان. لذا أتوسل إليك أن تعود معي، فقد جبتُ العالم كله بحثًا عنك. تعال معي يا بني، فأنا بحاجة إلى حبك».

لكن ابن النجوم لم يحرك ساكنًا، بل أغلق أبواب قلبه أمامها، ولم يكن هناك أي صوت بخلاف صوت المرأة وهي تبكي في ألم.

وعندما حدّثها أخيرًا، كان صوته قاسيًا، مشوبًا بالمرارة. قال: «لو كنتِ حقًّا والدتي، لكان من الأفضل أن تبقي بعيدًا، لا أن تأتي إلى هنا، وتجلبي لي العار. فقد كنت أعتقد أنني ابن أحد النجوم، لا ابن شحاذة، كما أخبرتني أنتِ الآن. لذا ارحلي من هنا، ولا أريد أن أراكِ ثانية».

صاحت قائلة: «وا أسفاه يا بني! ألن تمنحني قبلة قبل أن أرحل؟ فقد عانيتُ الكثير حتى وجدتك».

قال ابن النجوم: «كلا، فأنت قبيحة للغاية، وأنا أفضل أن أقبّل أفعى، أو ضفدعًا عن أن أقبّلكِ أنتِ».

لذا نهضت المرأة، ومضت إلى الغابة، وهي تبكي بكاءً مريرًا. وعندما رأى ابن النجوم أنها قد رحلت شعر بالسعادة، وعاد مسرعًا إلى رفاقه؛ كي يلعب معهم.

لكن عندما رأوه قادمًا سخروا منه قائلين: «إنك قبيح كالضفدع، وكريه كالأفعى. ابتعد من هنا، فلن نسمح لك باللعب معنا». وطردوه خارج البستان.

تجهم ابن النجوم، وحدّث نفسه قائلًا: «ما هذا الذي يقولونه؟ سأذهب إلى البئر، وسيؤكد لي جمال ملامحي».

لذا توجه إلى بئر الماء ونظر داخله. ويا للعجب! فقد كان وجهه يشبه الضفدع، وجسده مغطى بالحراشف كالأفعى. ألقى بنفسه على العشب باكيًا، وقال محدّثاً نفسه: «بالتأكيد حدث هذا لي بسبب ذنبي الذي اقترفته. فقد أنكرت والدتي، وطردتها بعيدًا، وعاملتها بكبرياء وقسوة. لذا سأذهب للبحث عنها في العالم أجمع، ولن أرتاح حتى أجدها».

وهنا أتت إليه ابنة الحطّاب الصغيرة، ووضعت كفها على كتفه قائلة: «ماذا يهم في الأمر لو فقدت جمال ملامحك؟ ابق معنا ولن أسخر منك».

فقال لها: «لا، فقد كنت قاسيًا على أمي، ولحق بي هذا الشر كعقاب لي. لذا يجب علي أن أرحل، وأجوب العالم حتى أجدها كي تصفح عني».

ركض إلى الغابة مناديًا أمه، طالبًا منها أن تأتي إليه، لكنه لم يلقَ جوابًا. ناداها طوال اليوم، وعندما غربت الشمس، تمدد لينام على

فراش من أوراق الشجر، ففرت منه الطيور والحيوانات، فقد كانوا يتذكرون قسوته. كان وحيدًا عدا ضفدعًا، بقي يراقبه، وحيّة مرّت بجواره، زاحفة ببطء.

وفي الصباح، استيقظ، وقطف بعض ثمار التوت المر من الأشجار، وتناولها، ثم سلك طريقه في الغابة الواسعة، وهو يبكي بحرقة. كان يسأل كل ما يلتقيه في طريقه، ما إذا كان شاهد والدته.

قال للخلد: «بمقدورك النزول تحت سطح الأرض. فلتخبرني، هل والدتي هناك؟».

لكن الخلد أجابه: «لقد فقأت عيني، وأفقدتني البصر، فكيف أعرف جواب سؤالك؟».

سأل طائر الحسون: «بوسعك الطيران أعلى قمم الأشجار، ورؤية العالم بأكمله. فلتخبرني، هل بمقدورك أن ترى والدتي؟».

فأجابه الحسون قائلًا: «لقد قصصت أجنحتي كي تسلي نفسك، فكيف لي أن أطير؟».

ثم قال للسنجاب الصغير، الذي يعيش وحيدًا في شجرة التنوب: «أين والدتي؟».

فرد السنجاب قائلًا: «لقد قتلت والدتي. هل تسعى لقتل والدتك أنت أيضًا؟».

فبكى ابن النجوم، وحنى رأسه، وطلب الصفح من مخلوقات الرب،

ثم استمر في طريقه داخل الغابة باحثًا عن الشحاذة. وفي اليوم الثالث، وصل لطرف الغابة الآخر، وخرج إلى السهل.

وبينما هو يمر في طريقه عبر القرى، كان الأطفال يسخرون منه، ويقذفونه بالحجارة، وحتى الفلاحون لم يسمحوا له بالنوم في الحظائر، مخافة أن يتسبب في التعفن الفطري للذرة المخزنة. فقد كان قبيحًا للغاية. وطرده العمال بعيدًا، دون أن يشفق عليه أحد. ولم يسمع في أي مكان أخبارًا عن الشحاذة التي هي والدته، بالرغم من أنه جاب العالم لمدة ثلاث سنوات. وكثيرًا ما كان يهيأ له أنه يراها على الطريق أمامه، وكان يناديها ويركض خلفها، حتى تدمي الأحجار الحادة قدميه. لكنه لم يتمكن أبدًا من اللحاق بها، وكان أولئك الذين يقطنون على جانبي الطريق، ينكرون أنهم قد شاهدوها، أو شاهدوا أحدًا يشبهها، وكانوا يسخرون من أحزانه.

لمدة ثلاث سنوات ظل يجوب العالم، ولم يكن هناك في هذا العالم أي حب أو عطف أو إحسان له، بل كان عالمًا يشبه ذلك الذي خلقه بنفسه، حينما كان يتصف بالكبر.

وفي مساء أحد الأيام، وصل لبوابة مدينة ذات أسوار عظيمة على ضفة أحد الأنهار. وبالرغم من أنه كان منهكًا، وقدماه تؤلمانه، إلا أنه حاول الدخول. لكن الحراس الواقفين على البوابة سدوا المدخل بمطاردهم، وحدّثوه قائلين بخشونة: «ما الذي تريده في هذه المدينة؟».

فرد قائلًا: «أنا أبحث عن والدتي، وأتوسل إليكم أن تسمحوا لي بالمرور، فربما تكون في هذه المدينة».

إلا أنهم سخروا منه، وهزّ أحدهم لحيته السوداء، وأنزل درعه وصاح قائلًا: «في الحقيقة لن تشعر أمك بالسعادة عندما تراك، فأنت أكثر قبحًا من ضفدع وسط الأوحال، أو الأفعى التي تزحف بين المستنقعات. فلترحل عن هنا. ارحل عن هنا، فأمك لا تسكن هذه المدينة».

وخاطبه آخر، يحمل في يده راية صفراء قائلًا: «من تكون والدتك، ولماذا تبحث عنها؟».

فرد قائلًا: «والدتي شحاذة مثلي تمامًا. عاملتها بقسوة، وأتوسل إليكم أن تسمحوا لي بالمرور، كي أستطيع أن أطلب منها الصفح». لكنهم رفضوا، ووخزوه برماحهم.

وبينما هو يستدير باكيًا، جاء أحدهم وقد رُصعت دروعه بالزهور المذهبة، وعلا خوذته أسد مجنح، وسأل الحراس عن ذلك الذي كان يرغب في الدخول. فقالو له: «إنه مجرد شحاذ ابن شحاذة، وقد طردناه بعيدًا».

فصاح ضاحكًا: «لا، بل سنبيع هذا الكائن القبيح كعبد، وبثمنه سنشتري إناء من النبيذ الحلو».

ومرّ بهم رجل عجوز يكسو الشر ملامحه، فناداهم قائلًا: «سأشتريه

منكم بذلك السعر». وعندما دفع الثمن، اقتاد ابن النجوم من يده إلى داخل المدينة.

بعد أن مرا عبر شوارع عديدة، وصلا إلى باب صغير في جدار، اختفى خلف شجرة رمان. لمس الرجل العجوز الباب بخاتم من حجر اليشم المحفور، فانفتح، وهبطا خمس درجات من النحاس الأصفر إلى حديقة مليئة بزهور خشخاش سوداء، وجرار خضراء من الطين المحروق. عندها خلع الرجل العجوز من عمامته وشاحاً من الحرير المنقوش، ثم ربط به أعين ابن النجوم، ودفعه أمامه. وعند إزالة الوشاح من فوق عينيه، وجد ابن النجوم نفسه في زنزانة مضاءة بمصباح من قرون الحيوانات.

وضع الرجل أمامه صحناً خشبياً، به بعض الخبز المتعفن وقال: «كل». ثم أعطاه بعض الماء العكر في كوب وقال: «اشرب». وعندما أكل وشرب، خرج العجوز، وأغلق الباب وراءه، وثبته بسلسلة من حديد.

وفي اليوم التالي، جاء الرجل -الذي كان من أبرع سحرة ليبيا، وتعلم السحر من أحد سكان المقابر على النيل- وتجهم وهو يقول: «في غابة قريبة من بوابة مدينة الكفار هذه، توجد ثلاث قطع من الذهب. واحدة من الذهب الأبيض، والثانية من الذهب الأصفر، أما الثالثة فمن الذهب الأحمر. اليوم ستجلب لي قطعة الذهب الأبيض، ولو لم تعد وهي بحوزتك، سوف أجلدك ثلاثمائة جلدة. هيا اذهب سريعاً،

وعند الغروب سأنتظرك عند باب الحديقة. فلتجلب قطعة الذهب الأبيض، وإلا فالويل لك؛ فأنت عبدي، وقد اشتريتك بثمن إناء من النبيذ الحلو». ثم ربط عيني ابن النجوم بوشاح الحرير المنقوش، واقتاده خلال البيت، وعبر حديقة الخشخاش، وأعلى الخمس درجات من النحاس الأصفر. وبعد أن فتح الباب الصغير بخاتمه، أخرجه إلى الطريق.

خرج ابن النجوم من بوابة المدينة، ووصل للغابة التي حكى له عنها الساحر.

كانت الغابة تبدو جميلة لمن يتأملها من الخارج، وبدت مليئة بالطيور المغردة والزهور العطرة، فدخلها ابن النجوم عن طيب خاطر. إلا أن جمال الغابة لم ينفعه كثيرًا، فحيثما ذهب وجد الأشواك الحادة ترتفع من الأرض لتحيط به، ونبات القراص القاسي يلدغه، والنباتات الشائكة تطعنه بخناجرها، حتى صار في حالة يرثى لها من الألم. ولم يجد في أي مكان قطعة الذهب الأبيض التي ذكرها الساحر، بالرغم من بحثه عنها من الصباح حتى الظهيرة، ومن الظهيرة حتى الغروب. وعند الغروب، توجه نحو البيت وهو يبكي بكاءً مريرًا، فقد كان يعلم المصير الذي ينتظره.

لكن عندما وصل لأطراف الغابة، ترامى إلى سمعه صوت قادم من أجمة، وكأن أحدهم يصيح من الألم. فنسي حزنه، وركض عائدًا إلى هناك، حيث شاهد أرنبًا صغيرًا، وقع في فخ، صنعه أحد الصيادين.

فأشفق عليه ابن النجوم، وأطلق سراحه قائلًا له: «ما أنا إلا مجرد عبد، لكن بمقدوري على الأقل أن أمنحك أنت حريتك».

فأجابه الأرنب قائلًا: «لقد منحتني الحرية، فما الذي أستطيع أنا أن أمنحك إياه في المقابل؟».

فرد ابن النجوم قائلًا: «أنا أبحث عن قطعة من الذهب الأبيض، ولا أستطيع العثور عليها في أي مكان. ولو لم أجلبها لسيدي فسيقوم بجلدي».

قال الأرنب: «تعال معي، وسأقودك إليها، فأنا أعلم المكان الذي أُخفيت فيه، والغرض من ذلك».

فذهب ابن النجوم مع الأرنب، ويا للعجب! داخل شق في شجرة بلوط ضخمة، شاهد قطعة الذهب الأبيض التي كان يبحث عنها. فغمرته السعادة، وقبض عليها قائلًا للأرنب: «لقد رددت لي الجميل الذي أسديته إليك أضعافًا مضاعفة، ورددت لي الإحسان ألف مرة».

أجاب الأرنب قائلًا: «كلا، بل عاملتك كما عاملتني أنت». ثم ركض مبتعدًا، ومضى ابن النجوم في طريقه إلى المدينة.

على بوابة المدينة، كان هناك مجذوم جالس، وعلى رأسه قلنسوة من الكتّان الرمادي، وقد التمعت من تحتها عيناه مثل الجمر المتقد. عندما شاهد ابن النجوم قادمًا، خبط على طبقه المصنوع من الخشب، وقرع

جرسه وهو يصيح مناديًا إياه، قائلًا: «فلتعطني بعض النقود، وإلا سأموت جوعًا. فقد طردوني خارج المدينة، ولا أحد يشفق علي».

صاح ابن النجوم قائلًا: «وا أسفاه! فلا يوجد في كيسي سوى قطعة واحدة من الذهب، ولو لم أجلبها لسيدي فسوف يجلدني، فأنا عبده».

لكن المجذوم تضرع له، وتوسل إليه، حتى أشفق عليه ابن النجوم، وأعطاه قطعة الذهب الأبيض.

وعندما وصل لبيت الساحر، فتح له الساحر الباب وأدخله قائلًا له: «هل بحوزتك قطعة الذهب الأبيض؟». فأجاب ابن النجوم قائلًا: «لا، ليست معي». لذا جلده الساحر، ووضع أمامه طبقًا خشبيًا خاليًا وقال له: «كل» وأعطاه كوبًا خاليًا وقال له: «اشرب». ثم ألقى به في الزنزانة مرة أخرى.

وفي اليوم التالي، أتاه الساحر مرة أخرى وقال: «لو لم تجلب لي اليوم قطعة الذهب الأصفر، سأبقيك عبدًا، وسأجلدك ثلاثمائة جلدة».

فتوجه ابن النجوم نحو الغابة، وبحث عن قطعة الذهب الأصفر طوال اليوم، إلا إنه لم يجدها في أي مكان. وعند الغروب جلس، وشرع في البكاء، فجاءه الأرنب الصغير الذي أنقذه من الفخ.

قال له الأرنب: «لماذا تبكي؟ وما الذي تبحث عنه في الغابة؟».

فأجابه ابن النجوم قائلًا: «أنا أبحث عن قطعة من الذهب الأصفر مخبأة هنا، ولو لم أعثر عليها سيجلدني سيدي ويبقيني عبدًا».

صاح الأرنب قائلًا: «اتبعني». وركض في الغابة، حتى وصل إلى بحيرة مياه، وفي قاع البحيرة كانت قطعة الذهب الأصفر.

قال ابن النجوم: «كيف يمكنني أن أشكرك؟ فهذه المرة الثانية التي تسعفني فيها».

قال الأرنب: «لا، بل أنت الذي أشفقت علي أولا». ثم ركض مبتعدًا.

أخذ ابن النجوم قطعة الذهب الأصفر، ووضعها في كيسه، ثم أسرع عائدًا للمدينة. لكن المجذوم شاهده وهو قادم، فأسرع للقائه، وركع على ركبتيه، وهو يصيح قائلًا: «اعطني قطعة من النقود، وإلا سأموت جوعًا».

فأجابه ابن النجوم قائلًا: «لا يوجد معي في كيسي سوى قطعة واحدة من الذهب الأصفر، ولو لم أعد بها إلى سيدي سيجلدني، ويبقيني عبدًا».

إلا أن المجذوم توسل إليه كثيرًا، حتى أشفق عليه ابن النجوم، وأعطاه قطعة الذهب الأصفر.

وعندما وصل إلى بيت الساحر، فتح له الساحر الباب وأدخله، وهو يقول له: «هل معك قطعة الذهب الأصفر؟»، فرد ابن النجوم قائلًا: «لا، ليست بحوزتي». فجلده الساحر، وقيده بالسلاسل، وألقاه مرة أخرى في الزنزانة.

وفي اليوم التالي، جاءه الساحر وقال: «لو جلبت لي اليوم قطعة الذهب الأحمر فسوف أطلق سراحك، لكن لو لم تحضرها إليّ فسوف أقتلك».

فذهب ابن النجوم إلى الغابة، وبحث عن قطعة الذهب الأحمر طوال اليوم، إلا إنه لم يعثر عليها في أي مكان. وعند المساء جلس، وشرع في البكاء، وبينما هو يبكي جاءه الأرنب الصغير.

قال له الأرنب: «قطعة الذهب الأحمر التي تبحث عنها موجودة في المغارة التي وراءك. لذا لا تبك، ولتشعر بالسعادة».

صاح ابن النجوم قائلًا: «كيف يمكنني أن أكافئك؟ فهذه هي المرة الثالثة التي تساعدني فيها».

قال الأرنب: «لا، بل أنت من أشفق علي أولا». ثم ركض مبتعدًا.

دخل ابن النجوم المغارة، وفي أقصى ركن بها وجد قطعة الذهب الأحمر. فوضعها في كيسه، وعاد مسرعًا إلى المدينة. وعندما شاهده المجذوم قادمًا، وقف في وسط الطريق وصاح قائلًا له: «فلتعطني قطعة الذهب الأحمر، وإلا سوف أموت». فأشفق عليه ابن النجوم مرة ثانية، وأعطاه قطعة الذهب الأحمر وهو يقول: «حاجتك أكبر من حاجتي». إلا أنه شعر بثقل في قلبه، فقد كان يعلم المصير البائس الذي ينتظره.

لكن يا للعجب! عندما مرّ عبر بوابة المدينة، انحنى له الحراس، ووجهوا له التحية، قائلين: «ما أجمل مولانا!». وتبعه حشد من سكان المدينة، وصاحوا قائلين: «قطعًا لا يوجد من هو في مثل جماله في العالم أجمع!». فبكى ابن النجوم وحدّث نفسه قائلًا: «أنهم يسخرون مني، ويهزأون بتعاستي». وكان الحشد كبيرًا للغاية، لدرجة أنه ضل الطريق، فوجد نفسه في نهاية المطاف في ساحة واسعة بها قصر الملك.

وانفتحت بوابة القصر، وأسرع الكهنة وكبار الوزراء للقائه، وانحنوا أمامه قائلين: «أنت مولانا الذي كنا ننتظره، وابن ملكنا».

فأجابهم ابن النجوم قائلًا: «أنا لست ابن ملك، بل مجرد ابن شحاذة فقيرة. وكيف تدّعون أن ملامحي جميلة، بينما أنا أعلم كم أبدو مؤذيًا للعيون؟».

فأتى ذلك الذي كانت دروعه مرصعة بالزهور المذهبة، والذي علت خوذته أسد مجنح، ورفع درعًا، وهو يصيح قائلًا: « كيف يقول مولاي أنه ليس جميل المحيا؟».

فنظر ابن النجوم، ويا للعجب! فقد عادت ملامح وجهه كما كانت من قبل، وعادت له طلعته البهية، ورأى في عينيه شيئًا لم يكن موجودًا من قبل.

وركع الكهنة وكبار الوزراء أمامه، قائلين: «هناك نبوءة قديمة تقول إنه سوف يأتي في هذا اليوم من يتولى حكمنا. لذا فليتناول مولانا

تاجه هذا وصولجانه، وليصير ملكًا، ويحكمنا بعدله ورحمته»».

لكنه قال لهم: «أنا لستُ أهلًا لذلك، فقد تنكرتُ لوالدتي التي أنجبتني، ولن يرتاح لي بالٌ حتى أعثر عليها وأحوز عفوها. لذا اتركوني أذهب، فعليّ أن أجوب العالم مرة أخرى، ولا أبقى هنا بالرغم من التاج والصولجان اللذين تقدمانهما إليّ»». وبينما هو يتحدث أدار وجهه عنهم ناحية الطريق المؤدي لبوابة المدينة، ويا للعجب! شاهد وسط الحشد المتجمع حول الجنود الشحاذة التي كانت والدته، وبجوارها وقف المجذوم الذي اعتاد الجلوس على جانب الطريق.

ندت عن شفتيه صيحة فرح، وركض إليها، ثم ركع على ركبتيه، وقبّل جراح قدمي والدته، وبللهما بدموعه. حنى رأسه وسط التراب، وهو يبكي، وكأن قلبه يوشك أن ينفطر وقال لها: «أماه، لقد تنكرت لك ساعة كبريائي، فلتقبليني ساعة اتضاعي. أمي، لقد قدمت لك الكراهية، فلتمنحيني محبتك. يا والدتي، لقد رفضتك من قبل، فلتتقبلي ابنك الآن»»، إلا أن الشحاذة لم تجبه بكلمة.

فمد يديه، وقبض على قدمي المجذوم البيضاوين وقال له: «ثلاث مرات أظهرت لك الرحمة، فلتطلب من أمي أن تحدثني لمرة واحدة»»، لكن المجذوم لم يجبه بكلمة.

فبكى ثانية وقال: «أماه، عذابي أكبر من قدرتي على احتماله. فلتصفحي عني، ودعيني أعود إلى الغابة»». فوضعت الشحاذة كفها على رأسه وقالت له: «انهض»». ووضع المجذوم كفه على رأسه، وقال

هو الآخر: «انهض».

فقام واقفًا، ونظر لهما، ويا للعجب! فقد كانا ملكًا وملكة.

قالت له الملكة: «هذا هو والدك الذي أغثته».

وقال الملك: «هذه هي والدتك التي غسلت قدميها بدموعك». ثم عانقاه، وقبّلاه، واصطحباه معهما إلى القصر، وألبساه فاخر الثياب، ووضعا التاج على رأسه، والصولجان في يده. وبعد ذلك حكم المدينة الكائنة على ضفة النهر وصار سيدها. أظهر العدل والرحمة للجميع، ونفى الساحر الشرير بعيدًا، كما أرسل للحطّاب وزوجته الكثير من الهدايا الثمينة، ومنح أولادهما أعلى مراتب الشرف. ولم يسمح لأي شخص بالقسوة تجاه الطيور والحيوانات، بل علمهم المحبة وحب الخير والإحسان، ومنح الفقراء الخبز، وكسا العرايا، وساد السلام والرخاء في البلاد.

إلا أن فترة حكمه لم تطل، فقد كان العذاب الذي خبره بالغًا، ونار التجربة التي تعرض لها حاميًا، ففارق الحياة بعد ثلاث سنوات. وجاء بعده ملك شرير.

* * *


أوسكار وايلد
بيت الرمان
رائعة أوسكار وايلد
ترجمة: ايناس التركي